جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة بالمنوفية

التعايُش السلمي في ضوء صلح الحديبية

إعداد الدكتور

السعيد شعبان الدسوقي إبراهيم

الأستاذ المساعد في جامعة الأزهر (كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة – قسم الدعوة والثقافة الإسلامية)
والأستاذ المشارك في جامعة القصيم (كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – قسم الدعوة والثقافة الإسلامية)

التعايُش السلمي في ضوء صلح الحديبية

السعيد شعبان الدسوقي إبراهيم
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، كلية أصول الدين والدعوة، جامعة الأزهر، المنصورة، مصر، وكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة القصيم، المملكة العربية السعودية.
البريد الإلكتروني: AlsaeedShaaban.2113 @azhar.edu.eg

ملخص البحث

تهدف الدراسة إلى إبراز الرقي الحضاري للإسلام في جانب "العلاقة مع الآخَر"، وذلك للعمل على تصحيح الصورة الذهنية المشبَّعة بمشاعر الكراهية والخوف من الإسلام، والناتجة عن اعتقاد خاطئ بأن المسلمين هم مصدر العنف والإرهاب وإقصاء الآخر، وتأتي هذه الدراسة لتطرح تجربة نبوية رائدة في موضوع "**التعايش السلمي في ضوء صلح الحديبية**"، حاول الباحث من خلالها استخلاص أسس التعايش وقواعده التي وضعها رسول الله (ﷺ). وتأتي الدراسة في ثلاثة مباحث: **الأول:** يتناول مفهوم التعايش وأهميته، وأنواعه، ومظاهره، و**الثاني:** يتناول أسس التعايش المستنبطة من صلح الحديبية، و**الثالث:** يتناول النتائج والثمرات التي ترتبت على حالة الاستقرار والتعايش التي عمَّت أرجاء الجزيرة العربية بعد هدنة الحديبية. وقد خلص الباحث إلى أن التعايش عملية تفاعلية بين الأمم والشعوب، ينتج عنها تعاون في الأمور المشتركة والقيم الإنسانية المتفق عليها، دون المساس بخصوصية وثقافة كل أمة، الأمر الذي يجعل التعايش يقوم على الاحترام المتبادل، والإقرار بالاختلاف، وإلى أن دعوة الإسلام إلى التعايش قد تميزت عن غيرها من الدعوات المعاصرة بالسَّبق، والوضوح، والمصداقية، وإلى أن النبي (ﷺ) في صلح الحديبية قد أسس لتعايش يقوم على تغليب السلم وحقن الدماء، والقوة

والحزم، والمعرفة بالآخر وفهمه، والتمسك بالثوابت والحفاظ على المبادئ، وعبقرية التخطيط والتفاوض، والوفاء بالعهود واحترام المواثيق. وأوصى الباحث بضرورة الاستفادة من تجربة التعايش التي حققها رسول الله (ﷺ) في صلح الحديبية، وفق الأسس التي توصلت إليها الدراسة لتكون بمثابة ضوابط حاكمة، يلتزم بها المسلمون في تجارب التعايش اللاحقة في كل العصور والأزمنة.

الكلمات المفتاحية: التعايش السلمي، التقارب، قبول الآخَر، صلح الحديبية، أسس التعايش.

Peaceful Coexistence in light of the Hudaybiyyah Treaty

As-Saeed Shaaban Ad-Desouki Ibrahim
Department of Call and Islamic Culture at the College of Sharia and Islamic Studies, Qassim University, Saudi Arabia and the College of Fundamentals of Religion and Call, Mansoura, Al-Azhar University, Egypt.
Email: AlsaeedShaaban. 2113 **@azhar.edu.eg**

Abstract:

This study, highlighting the civilizational aspect of Islam regarding the "relationship with the Other", aims at correcting the mental image saturated with hatred and fear feelings from Islam. That image has resulted from evident prejudices that violence, terrorism, and exclusion versus the Other are generated by Muslims. This study comes to present a pioneering prophetic experience on the subject of "peaceful coexistence in the light of the Hudaybiyyah Treaty". The study tries to extract the coexistence foundations and its rules set by the Messenger of Allah. The study is divided into three sections: the first one deals with the concept of coexistence and its relevance, forms, and manifestations; the second one deals with the foundations of coexistence derived from the Hudaybiyyah Treaty, and the third one deals with the results and fruits of the state of stability and coexistence that prevailed throughout the Arabian Peninsula after the Hudaybiyyah Treaty. The researcher concludes that coexistence is an interactive process between nations and peoples, resulting in cooperation in common matters and agreed human values, without prejudice to the identity or the culture of each nation, a fact that makes coexistence based on mutual respect, and recognition of differences. In addition, the call of Islam to peaceful coexistence has been distinguished from other contemporary calls by its

precedence, clarity, and credibility. In fact, the Prophet, in the Hudaybiyyah Treaty, established a peaceful coexistence based on the predominance of peace on bloodshed, the maintenance of power and decisiveness, the deep knowledge and understanding of the Other, the full adherence to constant values and the preservation of principles, the genius planning and negotiation, and the full respect for covenants. The researcher recommends the need to take advantage of this experience of peaceful coexistence achieved by the Messenger of Allah in the Hudaybiyyah Treaty, according to the principles reached by the study, to serve as governing parameters, adhered to by Muslims everywhere in subsequent attempts of peaceful coexistence.

Keywords: Peaceful Coexistence, Rapprochement, Acceptance of the Other, Hudaybiyyah Treaty, Foundations of Coexistence.

المقدمة

إن الحمد لله نحمد ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله(١). **أما بعد:**

فإن الإسلام قد جاء بتشريع شامل ومتكامل، يلبي حاجة البشرية في حياتها الدينية والدنيوية، ويأتي ضمن هذه الحاجات: تنظيم العلاقات بين الناس، ويشمل ذلك: تنظيم العلاقة بين الراعي والرعية، وبين الأقارب والأرحام والجيران، وبين المسلم وغير المسلم، وبين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول في حالتي السلم والحرب، فقد وضع الإسلام لكل ذلك حدودًا واضحة وأحكامًا دقيقة.

والمتأمل في أحكام العلاقة بين المسلمين وغيرهم، يجد أنها علاقة تقوم على التعارف والتقارب والتعايش، بل والتعاون على ما فيه خير البشرية، الأمر الذي يؤكد عظمة هذا الدين وسموّ تشريعاته. ومن هنا جاء اختيار موضوع "التعايش السلمي" لإبراز الرقي الحضاري للإسلام، والعمل على تصحيح الصورة الذهنية الخاطئة عن الإسلام وأتباعه، تلك الصورة الذهنية المشبَّعة بمشاعر الكراهية والخوف من الإسلام، والناتجة عن اعتقاد خاطئ بأن المسلمين هم مصدر العنف والإرهاب وإقصاء الآخر، وهو ما بات يُعرف بـ "الإسلاموفوبيا Islamophobia".

وتأتي هذه الدراسة لتطرح تجربة نبوية رائدة في موضوع "**التعايش السلمي في ضوء صلح الحديبية**"، تتبلور من خلالها ملامح التعايش الذي دعا إليه

(١) هذه الافتتاحية ثبتت في صحيح مسلم: كتاب الجمعة – باب تخفيف الصلاة والخطبة ٥٩٣/٢ ح رقم ٨٦٨ بهذا اللفظ، وتسمى "خطبة الحاجة".

الإسلام وتتشكل معالمه، وتأتي هذه التجربة ضمن أحداث السيرة النبوية، ومعلوم أن سيرة النبي (ﷺ) هي الترجمة العملية لمبادئ الإسلام وقِيَمه، والتطبيق الفعلي لأحكام الشريعة ومقاصدها، وإذا كانت النصوص القرآنية والنبوية قد تتباين القراءات وتختلف الأفهام في إدراك مراميها واستيعاب مقاصدها، فإن أحداث السيرة النبوية هي المعبرة عن فعل النبي (ﷺ) وخطواته العملية، فلا مجال فيها لمتأوِّلٍ أو متهوِّك.

تساؤلات الدراسة: يحاول الباحث – من خلال هذه الدراسة – الإجابة عن عدة تساؤلات، منها:

١- ما مفهوم التعايش في الإسلام؟ وما أهميته؟ وما المشروع منه وغير المشروع؟

٢- الجميع يدعو للتعايش وينادي بضرورته، فهل تميزت دعوة الإسلام للتعايش عن غيرها من سائر الدعوات؟

٣- هل انطوى الإسلام كدين على أسس يقوم عليها التعايش مع الآخر؟

٤- هل الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هي السلم والتعايش أم الحرب والقتال؟

٥- هل توجد ثمة علاقة بين معدل انتشار الإسلام وبين حالة الهدوء والاستقرار التي سادت الجزيرة العربية بعد صلح الحديبية؟

أهداف الدراسة: تهدف هذه الدراسة إلى ما يلي:

١. التأصيل الشرعي لمفهوم التعايش مع غير المسلمين، وبيان أهميته ووجه الحاجة إليه.

٢. إظهار حقيقة التعايش الذي يدعو إليه الإسلام، وبيان ضوابطه.

٣. تقديم نموذج عملي وتجربة فريدة للتعايش والتسامح مع غير المسلمين من خلال صلح الحديبية.

٤. معالجة الإشكالات والرد على الشبهات الواردة حول قضايا التعايش بين الأديان.

٥. تبديد مخاوف غير المسلمين الذين يعيشون داخل المجتمعات الإسلامية وخارجها، وذلك ببيان رقي الإسلام في التعامل مع المخالف.

الدراسات السابقة: تناولَت العديد من الدراسات موضوع "التعايش"، لكني لم أعثر على دراسة تعمل على استخراج وبناء نظرية للتعايش مع غير المسلمين في ضوء صلح الحديبية، رغم كونه يتضمن تجربةً عملية وتطبيقًا للمبادئ التي نادى بها الإسلام لترسيخ قيم التعايش، نعم هناك أطروحات علمية تناولت صلح الحديبية بالدراسة والتحليل، بعضها لم يخرج عن الطريقة السردية لأحداث الغزوة وفق المنهج التاريخي، وبعضها خلص إلى نتائج دعوية أو تربوية، لكنها خلَت تمامًا من الحديث عن التعايش، أو اكتفت بالإشارة إليه كملمح من ملامح الغزوة، وأقرب هذه الدراسات إلى دراستي: دراسة هدي بنت هليل اللحياني، وعنوانها: **(المضامين التربوية المستنبطة من صلح الحديبية وتطبيقاتها التربوية في الأسرة والمدرسة)**(١)، ودراسة عيضة بن حسين الزهراني، وعنوانها: **(القيم الإدارية والمهارات القيادية المستنبطة من صلح الحديبية وتطبيقاتها في الإدارة المدرسية)**(٢)، ودراسة د. سليمان بن قاسم العيد، وعنوانها: **(فقه الدعوة في صلح الحديبية)**(٣)، أما **الأولى:** فتناولَت المضامين

(١) بحث مكمل لنيل درجة الماجستير في التربية الإسلامية والمقارنة (غير منشور)، جامعة أم القرى، كلية التربية، سنة ١٤٢٨هـ.

(٢) متطلب تكميلي لنيل درجة الماجستير في الإدارة التربوية والتخطيط (غير منشور)، جامعة أم القرى، كلية التربية، سنة ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

(٣) بحث (منشور) في المجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، المجلد (١٩)، العدد (٣٧) لسنة ١٤٢٥هـ.

التربوية المستنبطة من صلح الحديبية في الجانب الإيماني والأخلاقي والسياسي والإعلامي، وتطبيق تلك المضامين في الأسرة والمدرسة، وخلَت تمامًا من الإشارة إلى موضوع التعايش، وأما **الثانية:** فتناولَت القيم الإدارية والمهارات القيادية المستنبطة من صلح الحديبية دون تطرق لموضوع التعايش، وأما **الثالثة:** فقد تناولَت في المباحث الثلاثة الأولى أحداث الصلح وبنوده بطريقة أقرب إلى السرد التاريخي وذكر المرويات في ذلك، وركز المبحث الرابع على الدلالات الدعوية المستنبطة من صلح الحديبية، دون تطرق لموضوع التعايش، ولذلك سأكتفي بمبحث تمهيدي، أتناول فيه مفهوم التعايش، وأهميته، وأنواعه ومظاهره، ثم أنتقل إلى موضوع البحث وهو أسس التعايش المستنبطة من صلح الحديبية، والنتائج والثمرات المترتبة على الصلح ولها علاقة بموضوع التعايش.

منهج البحث: اعتمد البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي، حيث يقوم الباحث باستقراء النصوص الواردة في صلح الحديبية وتتبُّعِها في مظانها، ومن ثم تحليلها والخروج منها بأسس التعايش السلمي، ونتائج التعايش وآثاره الإيجابية على الدعوة والدولة.

خطة البحث: احتوى البحث على: مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، على النحو التالي:

- **المقدمة:** وتتضمن أهمية الموضوع، وتساؤلات الدراسة، وأهدافها، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وخطته.
- **المبحث الأول: مدخل إلى التعايش:** وفيه أربعة مطالب:
  - **المطلب الأول:** مفهوم التعايش.
  - **المطلب الثاني:** أهمية التعايش وضرورته.
  - **المطلب الثالث:** التعايش بين الحقيقة والادعاء.
  - **المطلب الرابع:** أنواع التعايش ومظاهره.

- **المبحث الثاني: أسس التعايش في ضوء صلح الحديبية:** وفيه ستة مطالب:
  - **المطلب الأول:** تغليب السلم وحقن الدماء.
  - **المطلب الثاني:** القوة والحزم.
  - **المطلب الثالث:** المعرفة بالآخر وفهمه.
  - **المطلب الرابع:** التمسك بالثوابت والحفاظ على المبادئ.
  - **المطلب الخامس:** عبقرية التخطيط والتفاوض.
  - **المطلب السادس:** الوفاء بالعهود واحترام المواثيق.
- **المبحث الثالث: النتائج والثمرات:** وفيه خمسة مطالب:
  - **المطلب الأول:** الاعتراف بدولة الإسلام في المدينة.
  - **المطلب الثاني:** حماية المستضعفين من المسلمين في مكة.
  - **المطلب الثالث:** نشر الأمن وتحقيق السلم المجتمعي في الجزيرة العربية.
  - **المطلب الرابع:** النهوض الدعوي والانتشار السريع للإسلام.
  - **المطلب الخامس:** الانطلاق نحو العالمية.
- **الخاتمة:** وتشتمل على أبرز النتائج، وأهم التوصيات.
- **الفهرس:** ويشتمل على المصادر والمراجع.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

المبحث الأول
مدخل إلى التعايش

قبل الحديث عن التعايش في ضوء صلح الحديبية، أجد من المناسب أن أمهِّد لذلك بمبحث أتناول فيه مفهوم التعايش، وأهميته، وموقف الإسلام منه، وأنواعه ومظاهره، وذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول
مفهوم التعايش

التعايش في اللغة: مشتق من العَيش، العين والياء والشين أصل صحيح يدل على الحياة والبقاء، والعَيش والمعيشة: ما تكون به الحياة من المطعم والمشرب ونحوهما، وعايَشَهُ: عاش معه، وتعايَشُوا: عاشوا على الألفة والمودة، ومنه: التعايش السلمي(١).

والتعايش في مدلوله اللغوي – وفق ما تقتضيه صيغة "التفاعل" – يفيد العلاقة المتبادلة بين طرفين أو أكثر، كما يشير إلى ((تبادل أسباب الحياة، والعيش بمودة وألفة بين الأفراد والجماعات المختلفة، فهو اشتراك في المعيشة بين فردين مختلفين))(٢)، يسعى كل منهما إلى قبول الآخر والتعامل معه، ويمكن اختصار ذلك في كلمتين هما: العيش معًا.

---

(١) راجع: لسان العرب لابن منظور ٣١٩٠/٤، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ. تحقيق: عبد الله علي الكبير، وآخرون، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ١٩٤/٤، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م. تحقيق وضبط: عبد السلام هارون، والمعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بمصر، ص ٦٣٩، ٦٤٠، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط. الرابعة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

(٢) راجع: المنجد في اللغة العربية المعاصرة: أنطوان نعمة، وآخرون، ص ١٠٤٠، دار المشرق، بيروت، ط. الأولى ٢٠٠٠م.

التعايش في الاصطلاح:

يعد التعايش من المصطلحات الحديثة التي أصبحت تتردد كثيرًا على الألسنة، وتتناولها العلوم السياسية والاجتماعية، ولذا فقد كثرت تعريفاته، ولا يكاد يوجد تعريف محدد متفق عليه حتى الآن، والمتأمل لكثير من تعريفات "التعايش" يجد أنها قد اختلفت باختلاف زاوية النظر، فمن العلماء والباحثين من نظر إلى التعايش بمعناه العام، ومنهم من ركز عليه بوصفه سلميًّا، ومنهم من عرفه بحسب ما يقتضيه، على النحو التالي:

التعايش بمعناه العام: جاء في "الموسوعة الإسلامية العامة" أن التعايش يقصد به: ((أن يعيش الرجل مع الخلق، فيسلَم منهم وينصفهم من نفسه، فيلقى الله (ﷻ) وقد أدى إليهم حقوقهم، وسلِم بدينه بين ظهرانيهم))(١)، وحول التعايش بمفهومه العام يقول د. عبد العزيز التويجري: ((التعايش هو اتفاق طرفين على تنظيم وسائل العيش – أي الحياة – فيما بينهما، وفق قاعدة يحددانها، وتمهيد السبل المؤدية إليه، فهو عملية تبادلية مع طرف ثانٍ، أو مع أطراف أخرى، تقوم على التوافق حول مصالح، أو أهداف، أو ضرورات مشتركة))(٢).

التعايش بوصفه سلميًّا: شاع في الواقع المعاصر وصف التعايش بالسلمية، يقال: تعايشَت الدولتان تعايشًا سلميًّا، والتعايش السلمي بين الدول: الاتفاق بينهما

(١) الموسوعة الإسلامية العامة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية التابع لوزارة الأوقاف المصرية، ص ٣٩٣، القاهرة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م. إشراف: د. محمود حمدي زقزوق.

(٢) الإسلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن الحادي والعشرين: د. عبد العزيز بن عثمان التويجري، ص ١٢ باختصار، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة "إيسيسكو" ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

على عدم الاعتداء(١)، وهو تعبير يراد به خلق جوٍّ من التفاهم بين الشعوب بعيدًا عن الحرب والعنف(٢)، وجاء في "موسوعة السياسة" أن التعايش السلمي هو: نبذ الحرب كوسيلة لتسوية الخلافات الدولية، واعتماد المفاوضات والتفاهم المتبادل، واحترام السيادة للدول الأخرى، والإقرار بالتكافؤ والمنفعة المتبادلة كأساس في العلاقات الدولية(٣)، وحيث يكون التعايش يكون السلم، وبالتالي ((لا بد لأي تعايش أن يكون سلميًّا، وإلا فإننا لا يمكن أن نطلق عليه تعايشًا، ويمكن القول بأن إضافة كلمة (السلمي) هي من باب التأكيد، أو من باب التفسير والتوضيح؛ خشية أن ينصرف الذهن إلى تطبيق القاعدة الأصولية المتعلقة بمفهوم المخالفة، وكأنها تعني أن هناك "تعايشًا حربيًّا"، وهو ما لم يقل به أحدٌ من العلماء والباحثين قديمًا أو حديثًا))(٤).

التعايش بحسب مقتضياته: أي بحسب ما يقتضيه من قبول الآخرين واحترامهم والتعاون معهم، وهو بهذا الاعتبار قد عرف بتعريفات كثيرة، منها: تعريفه بأنه: ((قيام تعاون بين دول العالم على أساس من التفاهم وتبادل

(١) معجم اللغة العربية المعاصر: د. أحمد مختار عمر ١٥٨٣/٢، عالم الكتب، القاهرة، ط. الأولى ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

(٢) التعايش في القرآن الكريم: د. محاسن عبد الله، بحث مقدم إلى المؤتمر القرآني الدولي، مركز البحوث بجامعة ملايا بماليزيا.

(٣) موسوعة السياسة: د. عبد الوهاب الكيالي، وآخرون ٧٦٥/١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، بدون تاريخ.

(٤) التعايش السلمي في المدينة في ضوء الصحيفة "وثيقة المدينة": د. عبد الله خلف عبد، بحث (منشور) في مجلة العلوم الإسلامية، كلية العلوم الإسلامية، الجامعة العراقية، العدد العاشر ٢٠١٥م، ص ٥٧٩.

المصالح الاقتصادية والثقافية))[١]، وعرفه آخر بأنه: ((اجتماع مجموعة من الناس في مكان معين، تربطهم وسائل العيش من المطعم والمشرب، وأساسيات الحياة، بغض النظر عن الدين والانتماءات الأخرى، يعرف كل منهما بحق الآخر دون اندماج وانصهار))[٢]، وعرفه ثالث فقال: ((هو نوع من التعاون والتعارف في المشترك الحضاري والإنساني، وتبادل الخبرات التي تعين الإنسان على عمارة الأرض، ونشر قيم الخير الذي يتفق الناس على الاعتراف بها))[٣]، والتعريف الأخير هو الذي أختاره؛ كونه الأقرب لموضوع البحث، ولأنه يجعل التعايش عملية تفاعلية بين كافة الأمم والشعوب، ينتج عنها تعاون في الأمور المشتركة والقيم الإنسانية المتفق عليها، دون المساس بخصوصية وثقافة كل أمة، الأمر الذي يجعل التعايش يقوم على الاحترام المتبادل، والإقرار بالاختلاف، وتقدير التنوع الثقافي، وتلك هي الضمانة الأكيدة لاستمرار التعايش وفاعليته.

ومما سبق من تعريفات يتبين أن "التعايش" هو عملية تراكمية، لا تحدث بين ليلة وضحاها، وإنما هي رغبة في العيش المشترك، تبدأ بالاتفاق على تجنب العنف والعيش خارج دائرة الصراع، وفي حال نجح هذا التعايش واستمر، تصبح العلاقة مرشحة للتفاهم وقبول الآخر والرغبة في التعاون المثمر الذي يحقق المصالح المشتركة، وبمزيد من التقارب وبناء الثقة بين الأطراف يصبح الطريق ممهدًا للتعايش على الألفة والمودة.

---

(١) القاموس السياسي: أحمد عطية الله، ص ٣١٠، دار النهضة العربية، القاهرة، ط. الثالثة ١٩٨٦م.

(٢) التعايش مع غير المسلمين وأثره في الفكر الإسلامي: أحمد عباس، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية أصول الدين بالقاهرة، جامعة الأزهر، ص ١٢.

(٣) حقوق الآخر في ضوء وثيقة المدينة المنورة: د. خالد عليوي جياد، بحث (منشور)، مجلة رسالة الحقوق، جامعة كربلاء، العدد (٢) ٢٠١٢م. ص ١٤٨.

المطلب الثاني
أهمية التعايش وضرورته

إن المتأمل في حال البشرية اليوم وما وصلت إليه من صراع مسلح وصدام مدمر، ليدرك الحاجة إلى التعايش الحقيقي، الذي يتأسس على قبول الآخر والعيش معه في سلام، ويمكن القول بأن التعايش ضرورة إنسانية، وقيمة إسلامية، وحتمية عصرية، وهو ما سيتضح من خلال السطور التالية:

التعايش ضرورة إنسانية: فهو الضمانة لاستمرار الحياة، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ [النبأ: ١١] ففيه يتحرك الناس ويسعون لكسب معايشهم، وقال تعالى عن الأرض: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ [الحجر: ٢٠] فهي معاش للخلق يلتمسون فيها ما يتعيشون به، ولن يتم لهم ذلك إلا مجتمعين متعاونين؛ لأجل الحصول على أقواتهم، ودفع المخاطر عن أنفسهم، وهو ما عبر عنه ابن خلدون بقوله: ((الاجتماع الإنساني ضروري، فالإنسان مدني بالطبع، أي: لا بُدَّ له من الاجتماع الذي هو المدنيَّة، وهو معنى العمران))(١)، وبيَّن حاجة الإنسان إلى التعاون مع أبناء جنسه ليطعم من جوع ويأمن من خوف، ثم قال: ((وإذا كان التعاون حصَّل له القوت للغذاء، والسلاح للمدافعة، وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه، فإذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني، وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إياهم))(٢)، ولذا كان التعايش محققًا للمصالح البشرية العليا، ومعززًا للأهداف الإنسانية السامية، وعلى رأسها استتباب الأمن والسلم في الأرض. وبالتالي لا غناء للإنسان عن

(١) مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون ١٣٧/١ باختصار، دار يعرب، دمشق، ط. الأولى ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م. تحقيق: عبد الله محمد الدرويش.

(٢) المرجع السابق ١٣٨/١.

الناس، قال رجل لوهب بن منبه: إني هممتُ بالعزلة، فما ترى؟ قال: لا تفعل، بك إلى الناس حاجة، وبالناس إليك حاجة(١)، كما لا غنى للمجتمعات عن بعضها البعض؛ لأن مصالح الأمم والشعوب تقتضي مدّ جسور اللقاء لأجل تبادل المنافع السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعلمية، وغيرها.

ولأجل تحقيق المصالح وتبادل المنافع أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد: ٢٥] أي: مصالح تنفعهم في معاشهم وتيسر أعمالهم، إذ ما من صنعة إلا والحديد أو ما يعمل به آلتها، للإيماء إلى أن القيام بالقسط كما يحتاج إلى الوازع وهو القائم بالسيف ليحفظ العدل، يحتاج إلى ما به قيام التعايش ليتم التمدن الذي يحتاجه بقاء النوع، الذي يحتاج أيضًا إلى ما به قوام التعايش من الصنائع(٢)، وحتى تتحقق تلك المنافع، يلزم التعايش بين الجميع، وأن تصبح الأمم والشعوب متساندة لا متعاندة.

((لقد نشأت فكرة التعايش مع تكوين المجتمعات، وقامت على أساس التشابه بين أفرادها، ثم لم تلبث أن تطورت بعد ذلك لتقوم بناءً على الاحتياج، ومن ثم كلما اتسع نطاق المنضوين في تكتل بشري معين، ضعف عنصر التشابه – على أهميته – وقوي عنصر الاحتياج، ومعه زادت ضرورة التعايش))(٣)، فاحتياج الناس لبعضهم البعض هو الذي يحملهم على التعايش مهما كانوا

(١) الفروق ومنع الترادف للحكيم الترمذي، نقلا عن: الموسوعة الإسلامية العامة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ص ٣٩٣.

(٢) روح المعاني للألوسي ١٨٨/٢٧، ١٨٩ بتصرف، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

(٣) مفهوم التعايش في الإسلام: د. عباس الجراري، ص ٧.

مختلفين، إذ الاختلاف بين البشر أمرٌ حتمي اقتضته مشيئة الله ورحمته، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨] فالاختلاف بين الناس سنة كونية، سواء أكان هذا الاختلاف في الجنس، أو اللغة، أو الدين، وليس بمقدور أحد أن يزيل هذا الاختلاف والتباين بين الناس، والبديل هو الدعوة إلى التعايش وقبول الآخر رغم الاختلاف.

التعايش قيمة إسلامية: فقد شرع الإسلام التعايش بين المسلمين وغيرهم، بل وجعله جزءًا من عقيدة المسلم وإيمانه بوحدة الإنسانية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ١] فقد وصف الله (ﷻ) نفسَه بأنه المتوحِّد بخلق جميع الأنام من شخص واحد، معرِّفًا عباده كيف كان مبتدأ إنشائه ذلك من النفس الواحدة، ومنبههم بذلك إلى أن جميعهم بنو رجل واحد وأم واحدة، وأن بعضهم من بعض، وأن حق بعضهم على بعض واجب وجوب حق الأخ على أخيه؛ لاجتماعهم في النسب إلى أب واحد وأم واحدة، وأن الذي يلزمهم من رعاية بعضهم حق بعض – وإن بعُد التلاقي في النسب إلى الأب الجامع بينهم – مثل الذي يلزمهم من ذلك في النسب(١)، ورعاية المسلم لذلك يجعله أبعد الناس عن العنصرية والعرقية والاستعلاء على الآخر تحت أي دعوى من دعاوى الجاهلية، قال (ﷺ): **(يَا أَيُّهَا النَّاس، أَلا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِد، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِد، أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيّ، وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيّ، وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَد، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلا بِالتَّقْوَى)**(٢)، وهو بذلك يرسي مبدأ "المساواة" الذي يعد ضمانة كبرى للمواطنة الحقة والتعايش الناجح.

---

(١) تفسير الطبري ٥١٢/٧، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. الأولى ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م. تحقيق: أحمد محمد شاكر.

(٢) رواه أحمد في مسنده ٤٧٤/٣٨ ح رقم ٢٣٤٨٩، والبيهقي في شعب الإيمان ١٣٢/٧ ح رقم ٤٧٧٤.

إن المسلم يقرأ قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣] فيتولد لديه شعور عميق بأنه ينتمي لأسرة كبيرة خلقها الله ليتعارف أفرادها ويتعايش أهلها، وهو شعور ينتج عنه قابلية المسلم للتعايش مع الجميع بمختلف معتقداتهم وتوجهاتهم، ما داموا مسالمين، وذلك قول الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨]، ولقد كانت دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة نموذجًا فعليًّا لدولة تسع الجميع تحت مظلة الإسلام، وكان النداء النبوي الأول لأهل المدينة جميعًا، مسلمين وغير مسلمين، من الرسول (ﷺ): **(يا أيها الناس، أفْشُوا السلام، وأطعِمُوا الطعام، وصِلُوا الأرحام)**(١)، وجميعها خصال خيرٍ تؤسس لمجتمع متراحم متعاون، وعزَّزَ رسول الله (ﷺ) تلك التوجيهات بوثيقة المدينة التي وادَعَ فيها اليهود وغيرَهم، وبيَّن فيها الحقوق والواجبات، حتى ينهض الجميع بدوره، ويضطلع بمسؤولياته، ويشعر بانتمائه لتلك الدولة الجديدة.

عالمية الإسلام أساس التعايش: فرسالة الإسلام هي أول رسالة عالمية تتجاوز حدود الزمان والمكان واللغة والجنس، قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال (ﷺ): **(وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى قومه خاصَّة، وبُعِثتُ إلى الناس عامَّة)**(٢)، وعالمية الإسلام تقتضي الانفتاح المنضبط على حضارات الأمم وثقافات الشعوب، وغرض الإسلام من هذا

(١) رواه الترمذي في سننه ٦٢٥/٤ ح رقم ٢٤٨٥، وابن ماجة في سننه، باب إطعام الطعام ١٠٨٣/٢ ح رقم ٣٢٥١، وقال أبو عيسى: هذا حديث صحيح.

(٢) رواه البخاري في صحيحه: كتاب التيمم ١٢٨/١ ح رقم ٣٢٨، من حديث جابر بن عبد الله (رضي الله عنه).

الانفتاح أن تتفاعل الحضارات المتعددة والثقافات المتنوعة، وتتساند في كل ما هو مشترك إنساني عام.

ولما كانت دعوة الإسلام ذات نزعة عالمية، فالمسلمون مطالبون بتبليغها للناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها، وهو الأمر الذي يحتم عليهم الدخول في علاقات طيبة، وحسن جوار، لتحقيق هدف تبليغ الدعوة الإسلامية(١)، ولأجل هذا ينشد المسلم الأمن والسلام والاستقرار للعالم كله، ويحمل بين جنبيه قلبًا كبيرًا يسع الناس جميعًا، ولذا فهو أكثر الناس قابلية للتعايش وقبول الآخر.

التعايش حتمية عصرية: لا سيما في عصر العولمة الذي فرض التقارب بين الحضارات والثقافات البشرية المتنوعة، حتى أصبح العالم وكأنه قرية صغيرة، وهو تقارب يؤدي إلى الاحتكاك والصراع المدمر، أو إلى التعايش كسبيل لمواجهة تحدي التعدد الحضاري والتنوع الثقافي، ولا بديل عن التعايش سوى الخراب والدمار الناشئ عن الصراعات والحروب.

إن ما يعيشه العالم اليوم من صراعات وفتن وحروب يحتم ((الوصول إلى "صيغة وفاق عالمي" تحكم حياة الأفراد والشعوب والأمم، صيغة وفاق تقضي على التوتر والقلق، وتسوس حياة الإنسانية على ما فيها من حدة وتنوع، وتطرح الحد الأدنى لتعايش سلمي عالمي لا سيد فيه ولا مسود، ولا ظالم ولا مظلوم، صيغة وفاق توجه البشرية كلها إلى التآلف والسعي الدؤوب لما فيه خير الجميع في هذه الحياة الدنيا، مرجئةً الفصل بين أتباع كل عقيدة أو أيدولوجية

(١) راجع: العلاقات الدولية في الإسلام: د. وهبة الزحيلي، ص ٦، دار المكتبي، دمشق، ط. الأولى ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

إلى من يملك أهلية الفصل فيها، وهو الله قيوم السموات والأرض، صيغة وفاق تقضي على أسباب الفتن، وتهيء للإنسان أفرادًا وجماعات فرص الانسجام في رحلة الحياة))(١).

لقد أصبح التعايش اليوم ضرورة ملحة، يفرضها سباق التسليح النووي وغيره بين الدول الكبرى، ويحدوها الحفاظ على سلامة البشرية، وسيكون أكثر إلحاحًا في المستقبل القريب، ولذا وجب على عقلاء العالم وحكماء البشرية من المسلمين وغيرهم أن يبحثوا عن وسائل للتقارب والتعايش بين مختلف الطوائف والاتجاهات، مستضيئين في ذلك بالتوجيه الرباني في قول الله تعالى: ﴿**قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ**﴾ [آل عمران: ٦٤]، فهي دعوة للاجتماع على تلك المشتركات بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الرسالات السماوية، فإن عجزوا عن الاجتماع على تلك المشتركات العقدية، فلا أقل من الاجتماع على المشتركات الإنسانية التي تعلي صوت العقل والحكمة، وتراعي مصلحة الإنسان في كل الأحوال.

(١) مبادئ التعايش السلمي في الإسلام "منهجًا وسيرة": د. عبد العظيم المطعني، ص (و)، دار الفتح للإعلام العربي، القاهرة، طبعة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

المطلب الثالث
التعايش بين الحقيقة والادعاء

التعايش من المفاهيم التي كثر التطرق إليها في واقعنا المعاصر، وهو من المفاهيم التي لها جاذبية شديدة، لما يشتمل عليه من معاني التقارب، والعيش في سلم وأمان ومحبة ووئام بين الأمم والشعوب على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وعقائدهم وأفكارهم، وهي معاني براقة بلا شك، غير أن المرء يقف حائرًا بين ما يسمع بأذنيه من كلام عن التعايش السلمي، وما يراه بعينيه من واقع مشحون بالحروب والصراعات بمختلف أشكالها وأدواتها، فأين الحقيقة والادعاء في موضوع التعايش؟!

إن المتتبع لتاريخ ظهور مصطلح "التعايش"، يجد أنه قد اكتسب أهمية كبرى في العقود الأخيرة، فقد ابتدأ ظهوره بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥م)، تلك الحرب التي انقسم العالم بعدها إلى معسكرين كبيرين: أحدهما رأس مالي غربي، والثاني اشتراكي شرقي، وراح هذان المعسكران يتصارعان على سيادة العالم على أساس عقائدي مذهبي، ومما ساعد على إبراز الدعوة إلى سياسة "التعايش السلمي" الفزع الذري بعد أن أصبحت القنبلة النووية – وهي أداة الدمار الشامل – مشاعًا بين دول المعسكرين. وبقيام الجهة الثالثة، وهي مجموعة دول الحياد الإيجابي وعدم الانحياز، والتي تضم عددًا كبيرًا من الدول النامية الحديثة الاستقلال، والتي ترى أنها لا تستطيع أن تجني ثمرة حصولها على الحرية إلا إذا عاشت في سلام وأمان من القوى الدولية، أصبحت هذه الدول بدورها ذات مصلحة في تأييد الدعوة إلى التعايش السلمي، وإلى نبذ الحرب الباردة، والتلويح باستخدام معدات الدمار الشامل، دون اعتبار لأنظمة الحكم في دول العالم(١).

(١) راجع: القاموس السياسي: أحمد عطية الله، ص ٣١٠.

ومما سبق يتبين أن مصطلح "التعايش" الذي شاع في هذا العصر، قد ابتدأ رواجه مع ظهور الصراع بين الكتلتين الشرقية والغربية، ((وهو مصطلح يقودنا إلى جملة من المعاني التي يمكن تصنيفها إلى مستويات ثلاثة:

المستوى الأول: سياسي أيديولوجي: يهدف إلى الحدّ من الصراع، وترويض الخلاف العقائدي بين المعسكرين والعمل على احتوائه، من خلال فتح قنوات للاتصال والتعامل الذي تقتضيه ضرورات الحياة المدنية والعسكرية.

المستوى الثاني: اقتصادي: يهدف إلى إقامة علاقات التعاون الاقتصادي والتجاري بين الحكومات والشعوب.

المستوى الثالث: ديني، ثقافي، حضاري: يهدف إلى التقاء إرادة أهل الأديان السماوية والحضارات المختلفة على العمل من أجل أن يسود الأمن والسلام العالم، وحتى تعيش الإنسانية في جوٍّ من الإخاء والتعاون على ما فيه الخير الذي يعم بني البشر جميعًا، من دون استثناء))(١)، وهي ذات المعاني التي دعا إليها الإسلام نظريًّا وطبقها عمليًّا.

تميز المفهوم الإسلامي للتعايش: لقد تميزت دعوة الإسلام إلى التعايش بعدة مميزات، منها:

١- **السَّبق:** فقد سبق الإسلام – وبقرون طويلة – جميع الدعوات العالمية التي تنادي بضرورة التعايش السلمي، ففي حين يرجع ظهور الدعوة إلى التعايش إلى أعقاب الحرب العالمية الثانية، فإن الإسلام قد سبق إلى إقرار مبدأ التعايش، ودعا إليه من خلال آيات القرآن الكريم والسنة النبوية القولية والعملية، وبالتالي فإن ((المبادئ التي طالما صدرناها للناس، يُعاد تصديرها إلينا على أنها كشف إنساني ما عرفناه يومًا ولا عشنا به دهرًا، ونخشى أن

(١) الإسلام والتعايش بين الأديان: د. عبد العزيز التويجري، ص ٨، ٩ باختصار.

يجيء يوم يصدِّر الغرب إلينا فيه غسل الوجوه والأيدي والأقدام على أنه نظافة إنسانية للأبدان))(١).

٢- وضوح مفهوم التعايش في الإسلام، مع عموميته وإبهامه في كثير من الأحيان في المفهوم الغربي: فقد حفل القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بنصوص واضحة ومحددة تجلي مفهوم التعايش، وتبين ضوابطه، وتضع حدوده، وجاءت أحداث السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي لتؤكد ذلك وتترجمه عمليًّا، وفي المقابل اقتصر المفهوم الغربي للتعايش على بعض المبادئ العامة التي قد تتفاوت الأفهام في تقدير معانيها وكيفية تطبيقها، فهو ((يعكس وضعية قلقة تتأرجح بين السلم في معناه الواضح الصريح، وبين الحرب في مدلولها القديم المتعارف عليه، فهو تعايش نوعي يحفظ للقوتين المتصارعتين علاقاتهما الدبلوماسية ويجعلهما بالتالي تتحاشيان الاصطدام التقليدي المباشر، لما قد يفضي إليه من تبادل التدمير، وعلى هذا السياق الذي هو أشبه ما يكون بهدنة قتال، أطلق لفظ "الحرب الباردة" بكل ما ينم عنه هذا اللفظ من مراوغة ومناورة يكاد يختلط فيها المفهوم السياسي بالحربي. وهو مفهوم دعائي قصد به تلميع صورة الغرب، وإظهار الإسلام ومعتنقيه بصور مشوهة عديدة، من بين ملامحها التشدد والتطرف والتعصب وعدم القدرة على "التعايش" مع الآخرين))(٢).

---

(١) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة: الشيخ محمد الغزالي، ص ٦ باختصار، دار نهضة مصر، القاهرة، ط. الرابعة ٢٠٠٥م.

(٢) مفهوم التعايش في الإسلام: د. عباس الجراري، ص ٧، ٨ باختصار، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة "إيسيسكو" ١٤١٧هـ/١٩٩٦م

٣- التعايش الذي دعا إليه الإسلام ليس مجرد شعارات كما هو الحال في المفهوم الغربي: فقد دعا الإسلام إلى التعايش ابتداءً، ولم تكن دعوته تلك مجرد ردة فعل ولا تحت أي ضغط، أما في المفهوم الغربي المعاصر، فهو شعارات براقة ترفع، لكنها مجرد توصيات عامة غير ملزمة لأحد، ثم إن تطبيقها انتقائي، ويتم توظيفه سياسيًّا على حسب مصالح الدول الكبرى، ذلك أن المفهوم قد ((فرض نفسه بعد الحرب العالمية الثانية نتيجة توازن الرعب النووي، واستحالة حسم الصراع بالقوة دون إلحاق أذى مدمر بالقوة المبادرة في شن الحرب، إلا أن التعايش لم يوقف الصراع الفكري والاقتصادي والثقافي، كما لم يقض على الحروب الإقليمية، والحروب الأهلية في العالم))(١)، وعليه، فإن التعايش السلمي المعاصر لم يكن هدفه إسعاد البشرية بقدر ما كان رد فعل للتسليح النووي ((الذي جعل اعتماد مبدأ التعايش السلمي بين الدول الكبرى مسألة ضرورية لبقاء المجتمعات المعاصرة والجنس البشري))(٢).

وسوف يظهر للقارئ الكريم في المطلب التالي بعض مظاهر التعايش الذي دعا إليه الإسلام، وطبقه المسلمون حتى في عصور ضعفهم، مما يؤكد أن الإسلام قد دعا إلى التعايش الحقيقي، وليس التعايش الانتقائي الذي تعلو به أصوات الغرب لتحقيق مصالح معينة، أو الشعارات الجوفاء التي يكذبها الواقع.

(١) موسوعة السياسة: د. عبد الوهاب الكيالي، وآخرون ١/٧٦٥، ٧٦٦ باختصار.
(٢) السابق ١/٧٦٦.

المطلب الرابع
أنواع التعايش ومظاهره

يمكن تقسيم التعايش إلى أقسام عديدة باعتبارات مختلفة على النحو التالي:

أولا: أنواع التعايش من حيث المشروعية وعدمها: ينقسم إلى:

١- **التعايش المشروع:** وهو التعايش القائم على المسالمة والمهادنة وتبادل المصالح بين المسلمين وغير المسلمين، وفق الضوابط الشرعية التي قررتها الشريعة الإسلامية، وهو وسيلة من وسائل دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، ومن مظاهره: التسامح والتعامل الحسن مع غير المسلمين، وتمكينهم من المشاركة في خدمة المجتمع، والمحافظة على أمنه واستقراره، وتبادل المنافع الاقتصادية والتعليمية ونحوها.

٢- **التعايش الممنوع:** وهو المخالف للكتاب والسنة وما قررته الشريعة الإسلامية وما حذرت منه من التقليد الأعمى لغير المسلمين، والتشبه بهم، وموالاتهم، والتنازل عن قيم ومبادئ الإسلام إرضاءً لهم(١)، ونحو ذلك من مظاهر الميوعة والذوبان والتفريط في الهوية الإسلامية، بحجة التعايش وقبول الآخر والتقارب معه، فكل هذا ونحوه من التعايش الممنوع الذي لا يجيزه الإسلام ولا تقره الشريعة الإسلامية.

---

(١) راجع بتوسع: التعايش بين المسلمين وغير المسلمين في أفريقيا من منظور شرعي: د. المرتضى الزين، بحث (منشور) في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أفريقيا العالمية، السودان، العدد التاسع ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ٢٦ وما بعدها.

ثانيًا: أنواع التعايش من حيث نوع الاختلاف: ينقسم إلى(١):

١- **التعايش الديني:** وهو تعايش المسلمين مع غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى، سواء داخل الدولة الإسلامية أو خارجها، وذلك بالحسنى والمعروف وفقًا للهَدْي الإسلامي وما تقتضيه مصالح جميع الأطراف من أمور الحياة والمعاش والمواطنة المشتركة. ومن أمثلة التعايش الديني في بلاد المسلمين: تعايش المسلمين في مصر مع الأقباط، وفي لبنان مع النصارى، وغيرهم، ((وليس ثمة أبلغ وأوفى بالقصد من الآية الكريمة: ﴿**قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**﴾ [آل عمران: ٦٤] في الدلالة على عمق مبدأ التعايش في مفهوم الإسلام، ذلك أن المساحة المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب واسعة، وإذا كان الإسلام قد جعل في قلوب المسلمين متسعًا للتعايش مع بني الإنسان كافة، ففيه من باب أولى متسع للتعايش بين المؤمنين بالله، وإن كان هذا التعايش لا يعني أننا متفقون في كل شيء، ومن أبرز مظاهر التعايش الذي ساد الحضارة الإسلامية عبر العصور: أن الإسلام يعتبر اليهود والنصارى أهل ديانة سماوية حتى وإن لم يكن هذا الاعتبار متبادلاً، وعلى الرغم من أن عدم الإيمان بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام، هو عندنا أمرٌ عظيم، وشأن خطير، بل هو أمرٌ فارق، فإن الإسلام قد استوعب هذا الخلاف، لا بالتهوين من أمره، أو المهادنة العقيدية له، ولكن بما رسمه في باب المعاملات من تعاليم تسمح بالتواصل والتراحم رغم خلاف المعتقد))(٢).

---

(١) راجع بتوسع: التعايش (أنواعه، نماذج تطبيقية..): د. ناصر بن سعد السيف، بحث (منشور) في شبكة الألوكة الثقافية بتاريخ ٢٠١٦/٨/٣م، رابط النشر: https://www.alukah.net/culture/٠/١٠٦٢٥٥. تاريخ الزيارة: ٢٠٢٣/٢/٢٢م.

(٢) رسالة إلى العقل العربي المسلم: د. حسان حتحوت، ص ١٥٤،١٥٥ باختصار، دار المعارف، القاهرة، ط. الأولى ١٩٩٨م.

ومن أبرز مظاهر التعايش الديني أيضًا: أن غير المسلمين الذين يشكلون أقليات في المجتمع الإسلامي، قد أظهر لهم الدين من التسامح المفضي إلى التعايش، ليس فقط ما يكفل لهم حرية ممارسة عقائدهم، ولكن كذلك ما يجعلهم مواطنين في هذا المجتمع مندمجين فيه، موفوري الحرية والكرامة، غير منعزلين ولا مهمَّشين(١).

٢- **التعايش العرقي واللغوي:** ((ويقصد به: تنظيم العلاقة بين مجموعة من الأفراد الذين يسكنون في منطقة واحدة، وتحقيق التعاون والتفاهم بينهم، بالرغم من وجود اختلاف بينهم في العرق، أو اللغة، أو لون البشرة، أو العادات والتقاليد))(٢)، فقد يجتمع في بلاد إسلامية واحدة عدة أعراق، فهذا عربي، وهذا فارسي، وغير ذلك، وأيضًا من جانب اللغة، فقد يتواجد في البلد الواحد أكثر من لغة، وهذا مُشاهَد في كثير من الدول، ذلك أن الأعراق في حد ذاتها غير ذات قيمة يعلو بها أحد على أحد من البشر، والتعايش والعنصرية لا يجتمعان، إذ ((كيف لنا أن نتصور قيام تعايش بين إنسان راغب فيه، ومؤمن بوجوبه، وبين آخر يعتقد بأنه من أمة تفضل جميع الأمم، ويقول: إن أمتي فوق جميع الأمم، أو أن يقول: إن شعبي خلقه الإله ليكون سيدَ الشعوب، وإن جميع الشعوب خلقت لخدمة ذلك الشعب المختار! لقد أقام محمد (ﷺ) العلاقات بين أفراد مجتمعه

---

(١) مفهوم التعايش في الإسلام: د. عباس الجراري، ص ٢٦، ٢٧.

(٢) راجع بتصرف: أنواع التعايش السلمي: مريم الخليلي، مقال (منشور) في موقع "موضوع" آخر تحديث بتاريخ ٢٠٢٢/١١/٢م، رابط النشر: https://mawdoo٣.com/%D٨%A٣%D٩%٨٦%D٩%٨٨%D٨%A٧%D٨%B٩_%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%AA%D٨%B٩%D٨%A٧%D٩%٨A%D٨%B٤_%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%B٣%D٩%٨٤%D٩%٨٥%D٩%٨A_. تاريخ الزيارة: ٢٠٢٣/٢/٢٢م.

الجديد على أسس إنسانية تجاوز بها كل الاختلافات والفوارق الدينية والعرقية واللونية والطبقية، وجعلها علاقات بعيدة عن كل تعصب مهما كان أصله ولونه، وحاول أن يجتث جذور العصبية الجاهلية، عصبية الأحساب والأنساب، فقال (ﷺ): **(مَن قاتَلَ تحت راية عُمِّيَّة يغضبُ لعَصَبَةٍ، أو يدعو إلى عَصَبَةٍ، أو ينصرُ عَصَبَةً، فقُتِل، فقِتلَةٌ جاهلية)**(١).

إن تاريخ الإسلام لم يعرف الحروب الدينية ولا حرب القوميات والألوان، فالأجناس والعروق المتعددة لم تَعرف على صعيده تفضيل جنس على آخر، اللهم إلا إذا كان التفضيل بعلم نافع أو عمل صالح، وسرعان ما انتشر الإسلام دون إكراه ولا اضطهاد، وبقي من شاء على دينه، وظهر من هؤلاء كثير من العلماء وأصحاب المناصب، وشكَّل الجميع مجتمعًا تعددت قومياته وأديانه ومذاهبه، وتوحدت لحُمته وأواصره))(٢).

٣- **التعايش المذهبي:** ففي كل دين مذاهب وفرق قد تجتمع في بلاد واحدة، كما هو الحال مثلاً في العراق من وجود مذهبي أهل السنة والشيعة، وهذا النوع من التعايش خارج حدود الدراسة، فهي تعنى بالتعايش بين المسلمين وغيرهم.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: كتاب الإمارة – باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال، ١٤٧٦/٣، ح رقم ١٨٤٨ من حديث أبي هريرة (ﷺ)، وقوله (ﷺ): (مَن قاتَلَ تحت راية عُمِّيَّة) بضم العين وكسرها: نسبة إلى الأمر الأعمى الذي لا يستبين فيه وجه الحق من الباطل، وقوله: (يغضبُ لعَصَبَةٍ، أو يدعو إلى عَصَبَةٍ، أو ينصرُ عَصَبَةً) معناه أنه يغضب لمحض التعصب لقومه أو قبيلته، لا لنصرة الحق، ومعنى الحديث: أن من يفعل ذلك وقاتل لأجله فقُتِل على تلك الحال، كانت كقتلة الجاهلية.

(٢) راجع بتوسع: الإسلام والتفاهم بين الشعوب: أ. هاني المبارك، ود. شوقي أبو خليل، ص ١٣ وما بعدها، دار الفكر، دمشق، طبعة ١٩٩٦م.

مظاهر التعايش في الإسلام:

للتعايش في الإسلام مظاهر كثيرة وأمارات عديدة، منها:

١- **الاعتراف بالآخر واحترام عقيدته:** وهو اعتراف عملي، تجسد في اعتراف الإسلام بالأديان السماوية الأخرى، والدعوة إلى الإيمان بالرسل جميعا دون تفريق أو استثناء، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وهو أمرٌ ينفرد به المسلمون دون أهل الملل والأديان، وكأن الإسلام حين دعا إلى الإيمان بالجميع يمهد السبيل للألفة والتعايش والأخوة الإنسانية العامة، ((وهو اعتراف وجود وتعايش لا اعتراف صحة، عملاً بقوله تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] ولا تعارض بين هذه الآية وآيتي: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] لأن هاتين الآيتين تتضمنان الحكم بالصحة أو عدمها، وهو مختلف عن الحكم بجواز وجود الآخر))(١)، ولا يتصور أبدًا قيام تعايش مع آخر أنت غير معترف بوجوده، وفكرة التعايش أساسًا لا تقوم إلا شريطة أن يؤمن الجميع بالتعددية العقائدية والفكرية، فالاختلاف لا يمنع التعايش، بل يفرضه كوسيلة للتفاهم واستمرار الحياة، والمسلمون اليوم لا يعيشون في جزر منعزلة عن غيرهم، ففي بلادهم تعيش طوائف ومذاهب متعددة، من أصحاب الديانات السماوية وغيرهم، ولا يملك المجتمع الإسلامي أن يحكم بالفناء على جميع العناصر التي تدين بغير الإسلام، بل يعده مجتمع الدعوة إلى الإسلام،

(١) أثر الحوار في التعايش مع الآخر: عبد السلام حمود غالب، ص ٢٤ باختصار، بحث (منشور) في شبكة الألوكة، تاريخ الإضافة ٢٠١٣/٧/٨م، رابط النشر: https://www.alukah.net/culture/٠/٥٦٩٨٧/ تاريخ الزيارة: ٢٠٢٣/٢/٢٣م.

فإن قبلوه كان خيرًا، وإلا فسبيلنا معهم المعايشة التي اصطلح على تسميتها بـــ "قبول الآخر".

((لقد أطلق الإسلام على مخالفيه الذين يعيشون مع المسلمين في نفس المجتمع "أهل الكتاب" و"الكتابيين"، ويطلق عليهم كذلك "أهل الذمة" و"الذميين"، أي أهل العهد والأمان، وهو اسم أوسع من "أهل الكتاب"؛ لأنه يشملهم ويشمل غيرهم من أصحاب الملل والنحل الأخرى التي كانت معروفة قديمًا، فقد روي أن عمر بن الخطاب (ﷺ) قال: ما أدري كيف أصنع بالمجوس وليسوا بأهل كتاب! فقال عبد الرحمن بن عوف (ﷺ): سمعتُ رسول الله (ﷺ) يقول: **(سنُّوا بهم سُنَّة أهل الكتاب)**(١) أي: اسلكوا بهم مسلك أهل الكتاب، كما روي أن الرسول (ﷺ) قَبِل الجزية من مجوس هجر(٢)، وكذا فعل الخلفاء الراشدون، ويتجلى التسامح مع هؤلاء وأولئك في احترام عقائدهم))(٣)، وحين يقف المسلمون من مخالفيهم مثل هذه المواقف، أي من احترامهم لعقائدهم، إنما يفعلون ذلك لا عن مجاملات تقتضيها ظروف مؤقتة وآداب اجتماعية، بل تنبثق مواقفهم من صلب عقيدتهم وتعاليم دينهم الذي يلزمهم بذلك(٤).

---

(١) رواه البيهقي في السنن الصغرى، باب الجزية ١٣٥/٨ ح رقم ٣٧٤٣، وابن أبي شيبة في مصنفه ٧١/٧ ح رقم ١٠٨٧٠، وقال الحافظ في الفتح (٢٦١/٦): وهذا منقطع مع ثقة رجاله، وله شاهد من حديث مسلم بن العلاء الحضرمي.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجزية والموادعة – باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب ١١٥١/٣ ح رقم ٢٩٨٧.

(٣) مفهوم التعايش في الإسلام: د. عباس الجراري، ص ٢٩، ٣٠ باختصار.

(٤) الإسلام والتفاهم بين الشعوب: أ. هاني المبارك، ود. شوقي أبو خليل، ص ٢٠ باختصار.

٢- **ضمان حرية الاعتقاد:** فحرية الاعتقاد في الإسلام مكفولة، ويقصد بها: عدم إكراه أي إنسان على ترك دينه والدخول في الإسلام بأي شكل من أشكال الضغط والإكراه، عملاً بقول الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦] أي: لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيِّنٌ واضح، جليٌّ دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحدٌ على الدخول فيه(١)، ذلك أن ((منهج الدعوة في الإسلام – كما جاء في القرآن الكريم – يقوم على التبليغ والتوضيح في إطارين سلميين، وردَا في قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، فمهمة الرسول (ﷺ) ومهمة الدعاة من بعده تقف عند هذا الحد، لا تتجاوزه إلى القهر والإكراه، وفرض الرأي بالقوة))(٢)، وهو ما يجعل بيئة الدعوة صالحة للتعايش في أبهى صوره، ذلك أنها تهيء المناخ الصالح لأن يعيش الناس في سلام وأمان، وأن يكونوا أحرارًا فيما يعتقدون، والشواهد على ذلك كثيرة في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، فعندما وصل النبي (ﷺ) المدينة، وادَعَ غير المسلمين وعاهدهم، وأقرهم على دينهم، وعاش الجميع آمنين مطمئنين إلى أن غلبت على القوم طبيعة الغدر والخيانة، واستقبل (ﷺ) نصارى نجران، فأحسن استقبالهم، وحاورهم، ومن أسلم منهم قبِل منه، ومن بقي على دينه لم تتغير معاملته معه.

---

(١) تفسير ابن كثير ٦٨٢/١، دار طيبة، الرياض، ط. الثانية ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م. تحقيق: سامي بن محمد سلامة.

(٢) راجع بتوسع: مبادئ التعايش السلمي في الإسلام: د. عبد العظيم المطعني، ص ٣ وما بعدها.

ولم يعمد المسلمون طيلة تاريخهم إلى قهر الشعوب أو إجبار الأفراد الذين تحت ولايتهم على ترك معتقداتهم، حتى كتب غير واحد من غير المسلمين عن رقي العلاقة وجميل التفاهم وحسن التعايش بين المسلمين وغيرهم في دولة الإسلام منذ نشأتها، سواء أكان غير المسلمين من مواطنيها أم كانوا من مواطني دول أخرى، ومن أشهر هذه الكتابات: ما سطره وشهد به توماس أرنولد في كتابه "الدعوة إلى الإسلام"، وغيره من الذين أنصفوا الإسلام.

٣- السماح لغير المسلمين بممارسة الشعائر الدينية وضمان سلامة دور العبادة: فإذا كان الإسلام قد كفل لغير المسلمين حرية الاعتقاد، ولم يجبر أحدًا على الدخول فيه، فهو من باب أولى قد كفل لهم أداء شعائرهم التعبدية، وصان لهم معابدهم وكنائسهم، فهي محفوظة لا تُهدم ولا تُنقص، ومحروسة لا يتعرض لها أحدٌ بسوء، ولهم حرية ارتيادها وإقامة شعائرهم فيها، وفق الضوابط الشرعية والأنظمة المرعية للدول الإسلامية، وهو ما نصَّت عليه كافة عقود الذمة منذ نشأة الدولة الإسلامية الأولى، فقد كتب النبي (ﷺ) لأهل نجران أمانًا شمل سلامة كنائسهم، وعدم التدخل في شؤونهم وعبادتهم، وأعطاهم على ذلك ذمة الله ورسوله. يقول ابن سعد في "الطبقات": ((وكتب رسول الله (ﷺ) لأساقفة نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم: أن لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير، من بِيَعهم وصلواتهم ورهبانيتهم، وجوار الله ورسوله، لا يُغيَّر أسقف عن أسقفيته، ولا راهب عن رهبانيته، ولا كاهن عن كهانته))(١)، وعلى هذا النهج سار الخلفاء الراشدون ومن تبعهم بإحسان، فقد كتب عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أمانًا لأهل القدس سُمي بـــ "العهدة العمرية" جاء فيه: ((بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبدالله عمر "أمير المؤمنين" أهلَ إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٦٦/١، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، أن لا تسكن كنائسهم، ولا تُهدَم، ولا يُنتقص منها ولا من حيِّزها، ولا يُكرَهون على دينهم، ولا يضار أحدٌ منهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين))(١).

والتاريخ الإسلامي خير شاهد على التزام المسلمين بالمحافظة على دور العبادة. يقول ول ديورانت: ((لقد كان أهل الذمة المسيحيون، والزرداشتيون، واليهود، والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرًا في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحرارًا في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم))(٢)، وما من شك في أن تلك الحرية التي تمتع بها غير المسلمين في الاحتفاظ بمعتقداتهم، وفي ممارسة الطقوس المرتبطة بها، تعد مظهرًا من مظاهر التعايش الحضاري في الإسلام.

٤- **مراعاة أوامر الشرع في حسن التعامل مع الآخر:** فقد تعددت نصوص الشريعة الإسلامية التي تأمر بحسن العشرة والمعاملة الحسنة مع غير المسلمين، ما داموا مسالمين، قال تعالى: ﴿**لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ**﴾ [الممتحنة: ٨] وقد نزلت الآية في شأن المشركين الوثنيين من قريش وأمثالهم من العرب(٣)، وهي تضع أساس التعامل مع غير المسلمين، وترغب في برِّهم والإقساط إليهم، والبر: هو الإحسان، والإقساط: هو العدل، وقد بدأت الآية الكريمة بالبر؛ تغليبًا للتعامل

(١) تاريخ الطبري ٤٤٩/٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى ١٤٠٧هـ.

(٢) قصة الحضارة: ول ديورانت ١٣٠/١٣، دار الجيل، بيروت، طبعة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م. ترجمة: زكي نجيب محمود، ومحمد بدران، وآخرون.

(٣) راجع: تفسير الطبري ٣٢١/٢٣ وما بعدها.

معهم بالإحسان والفضل، بأن يُزادوا شيئًا فوق حقهم، فإن تعذر ذلك، فلا أقل من أن يأخذوا حقهم كاملاً غير منقوص، ولأن العدل ضمانة كبرى للتعايش وركيزة من ركائزه، فقد فرضه القرآن للناس جميعًا، الصديق والعدو، والقريب والبعيد، والمسلم وغير المسلم، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨] أي: لا يحملنكم بغضُ قومٍ على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقًا كان أو عدوًّا(١)، فإن الظلم ظلمات، سواء كان لمسلم أم لكافر.

وفي البخاري أن قريشًا أبطئوا عن الإسلام، فدعا عليهم النبي (ﷺ)، فأخذتهم سَنَة (أي: قحط وجدب) حتى هلكوا فيها وأكلوا الميتة والعظام، فجاءه أبو سفيان فقال: يا محمد، جئت تأمر بصلة الرحم، وإن قومك هلكوا، فادع الله، فدعا رسول الله (ﷺ) فسُقُوا الغيث(٢). وما كانت قريش لترسل أبا سفيان لاسترضاء النبي (ﷺ) وطلب الدعاء منه لولا أنها تعلم أنه (ﷺ) أوصلهم للرحم، وأحرصهم على التقارب والتعايش.

وقد خص الإسلام أهل الكتاب بمحفزات للتعايش ومرغبات في التقارب، فأجاز مؤاكلتهم ومصاهرتهم، قال تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥] فقد نبهنا الله تعالى بهذا إلى التيسير في مخالطتهم، فأباح لنا طعامهم، وأباح لنا أن نطعمهم طعامنا، وعلة الرخصة في تناولنا طعامهم هو

(١) تفسير ابن كثير ٦٢/٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الاستسقاء – باب إذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط ٣٤٦/١ ح رقم ٩٧٤، من حديث عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه).

الحاجة إلى مخالطتهم، وذلك أيضًا تمهيد لقوله بعد: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لأن ذلك يقتضي شدة المخالطة معهم لتزوج نسائهم والمصاهرة معهم(١)، وهذه ذروة في التعايش الديني، أن يتزوج المسلم من كتابية، فتصبح شريكة حياته وأم أولاده، ويصبح أهلها أصهارًا له، بل ويصبحوا أجدادًا وجدات وأخوالاً وخالات لأولاده.

ولم يكن الأمر مجرد آيات تتلى، أو توجيهات نظرية يحفظها المسلمون ويرددونها في مجالسهم، ولكنه تحول إلى واقع عملي، طبقه الرسول الكريم (ﷺ)، فقد كان يزور أهل الكتاب، ويحسن معاملتهم، ويعود مرضاهم، ويأخذ منهم ويعطيهم، وقد تجلى هذا التعايش الإنساني الراقي في وقوفه (ﷺ) احترامًا لجنازة مرت عليه، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال (ﷺ): **(أليست نفسًا؟!)**(٢)، وتحكي أسماء بنت أبي بكر (رضي الله عنها) تقول: قدِمَت عليَّ أمي وهي مشركة، في عهد رسول الله (ﷺ)، فاستفتيتُ رسولَ الله، قلتُ: إن أمي قدِمت عليَّ وهي راغبة (أي: تنتظر مني أن أصِلَهَا وأُحسِن إليها)، أفأَصِلُ أمي؟ قال: **(نعم، صِلِي أمَّك)**(٣).

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٢٢/٦، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، طبعة ١٩٩٧م.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجمعة – باب من قام لجنازة يهودي ٨٥/٢ ح رقم ١٣١٢، ومسلم في صحيحه: كتاب الجنائز – باب القيام للجنازة ٦٦١/٢ ح رقم ٩٦١.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الهبة وفضلها – باب الهدية للمشركين ٩٢٤/٢ ح رقم ٢٤٧٧، ومسلم في صحيحه: كتاب الزكاة – باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين ٦٩٦/٢ ح رقم ١٠٠٣.

والإسلام في إطار دعوته إلى التعايش، يقرر إقامة علاقة طيبة مع غير المسلمين، ((ومن مقتضيات هذه العلاقة: أن تقوم بين المسلمين وغيرهم صلات طيبة، أساسها تبادل المصالح، واطراد المنافع، ومن خلال هذا المفهوم لا يدخل معنا الجانب المنهي عنه وهو موالاة الكافرين، إذ النهي عن موالاة الكافرين يقصد به النهي عن محالفتهم ومناصرتهم ضد المسلمين، كما يقصد به النهي عن الرضى بما هم عليه من كفر، إذ أن مناصرة الكافرين فيها ضرر بالغ بالكيان الإسلامي، وإضعاف لقوة الجماعة المؤمنة، كما أن الرضا بالكفر كفر يحظره الإسلام ويمنعه، أما الموالاة بمعنى المسالمة، والمعاشرة الجميلة، والمعاملة بالحسنى، والتعاون على البر، فهذا مما دعا إليه الإسلام))(١).

٥- **الدعوة إلى الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن:** فالحوار حتمي لتحقيق التفاهم والمصالح المشتركة، وهو أسلوب الأسوياء، ولا خلاف بين العقلاء على قيمته وأهميته، ورسالة الإسلام قائمة على مبدأ الحوار، قال تعالى: ﴿**وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ**﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ففي الآية دعوة لأن يكون الحوار مع أهل الكتاب ليس بالحسنى فقط، بل بالتي هي أحسن، وأن ينطلق الحوار من أرضية مشتركة ومبادئ عامة يتفق عليها الجميع، فهذا أدعى للتقارب، ولعل الإطار الذي رسمه الشيخ/ محمد الغزالي (رحمه الله) يمثل صيغة مثلى للتعايش الديني بين المسلمين وغيرهم، ففي حواره مع مسيحي يتبع الكنيسة الإنجيلية الإنجليزية، اقترح عليه عدة مبادئ ينبغي الاتفاق عليها وهي: ((**أولاً:** نتفق على استبعاد كل كلمة تخدش عظمة الله وجلالته، فأنا وأنت متفقان

(١) المجتمع الإسلامي والعلاقات الدولية: د. محمد الصادق عفيفي، ص ٨٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون تاريخ.

على أن الله قد أحاط بكل شيءٍ علما، وأنه لا يعجزه شيءٌ في السموات ولا في الأرض، وأن رحمته وسعت كل شيء، وأنه ليس متصفًا بالنقائص والعيوب التي تشيع بين البشر. **وثانيًا:** نتفق على أن الله يختار رسله من أهل الصدق والأمانة والكياسة، ويبعد أن يختار سفراءه إلى عباده من اللصوص والقتلة وأشباههم من المجرمين. **ثالثًا:** ما وجدناه متوافقًا في تراثنا نرد إليه ما اختلف فيه، وبذلك يمكن وضع قاعدة مشتركة بين الأديان))(١).

ولا يقتصر الحوار على أهل الكتاب فقط، بل يشمل الجميع، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] فإذا كان الله (ﷻ) قد وصف الموعظة بالحسنة، وهي تكون لمن يتفق معك عادة، فقد شرع جدال المخالف بالتي هي أحسن.

ومن أدب الحوار مع غير المسلمين: عدم التعرض إلى معتقداتهم بسوء، حتى لا يفتح ذلك بابًا للاشتباك والإساءة المتبادلة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨] إذ ليس من الحكمة في الحوار أن تهاجم معتقدات الآخرين، فهم راضون عنها ومتعلقون بها ويستحسنونها، وهذا هو سر تمسكهم بها، فلندَع الطعن في عقائد الآخرين، حتى نهيئ الأجواء لحوار ناجح وفعال، والمتأمل في آيات القرآن الكريم وسنة النبي (ﷺ) القولية والعملية، يجد كثيرًا من المحاورات مع خصوم الدعوة من مشركي العرب وملحديهم، ومن أهل الكتاب، وهي محاورات تتفق والمنهج السلمي للدعوة، الذي يقوم على استيعاب الآخر واحترام معتقده، والسعي إلى إقناعه بالحجة.

---

(١) صيحة تحذير من دعاة التنصير: الشيخ/ محمد الغزالي، ص ٢٨، دار نهضة مصر، القاهرة، ط. الثالثة ٢٠٠٥م.

وقد زعم البعض أن آيات المجادلة مع غير المسلمين منسوخة، وهذا خطأ، قال ابن تيمية (رحمه الله): ((ما ذكره الله تعالى من مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن محكم لم ينسخه شيء، وكذلك ما ذكره الله تعالى من مجادلة الخلق مطلقاً بقوله: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، فإن من الناس من يقول: آيات المجادلة والمحاجة للكفار منسوخات بآية السيف؛ لاعتقاده أن الأمر بالقتال المشروع ينافي المجادلة المشروعة، وهذا غلط، فإن النسخ إنما يكون إذا كان الحكم الناسخ مناقضًا للحكم المنسوخ))(١)، ويؤيد ما سبق: الاستثناء الوارد في الآية ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦] والمقصود بهم أهل الحرب والقتال، فهؤلاء يجادَلوا بالسيف، أما المسالمون منهم، فالحوار معهم وكل ما من شأنه أن يكفل حسن التعايش مشروع.

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية ٢/١١٠، دار الفضيلة، الرياض، ط. الأولى ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م تحقيق: علي بن حسن الألمعي، وآخرون.

المبحث الثاني
أسس التعايش في ضوء صلح الحديبية

بعد انكسار شوكة المشركين وهزيمتهم في غزوة الأحزاب (سنة ٥هـ)، تطورت الظروف في الجزيرة العربية إلى حدٍّ كبير لصالح المسلمين، وبدأت التمهيدات لإقرار حق المسلمين في أداء عبادتهم في المسجد الحرام، الذي كان قد صَدَّ عنه المشركون منذ ستة أعوام.

أُرِي رسول الله (ﷺ) في المنام، وهو بالمدينة، أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وطافوا واعتمروا، آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم داخلوا مكة عامهم ذلك، وأخبر أصحابه أنه معتمر فتجهزوا للسفر.

ركب النبي (ﷺ) ناقته القصواء، وخرج من المدينة يوم الاثنين غرة ذي القعدة (سنة ٦هـ)، في ألف وأربعمائة، ولم يخرج معه بسلاح، إلا سلاح المسافر: السيوف في القُرُب، وتحرك في اتجاه مكة، فلما كان بذي الحُلَيفَة قلّد الهدي وأشعرَه، وأحرم بالعمرة؛ ليأمن الناس من حربه، وبعث بين يديه عينًا له من خزاعة يخبره عن قريش، فأخبره أنهم جمعوا له جموعًا، وأنهم مقاتلوه وصادوه عن البيت، فأخذ رسول الله (ﷺ) طريقًا وعرًا بين شعاب، في محاولة منه لتجنب الصدام، وسار حتى نزل بأقصى الحديبية(١).

(١) الحُديبية: بضم الحاء وتُشدَّد ياؤُها وتُخفَّف، وسميت بالحديبية نسبةً إلى شجرة حدباء كانت في ذلك الموضع، وقيل: نسبةً إلى بئر، وهي على بعد (٢٢) كم غرب مكة على طريق جدّة القديم، وهي خارج الحرم غير بعيدة عنه. راجع: معجم البلدان: ياقوت الحموي ٢/ ٢٢٩، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ، ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية: عاتق بن غيث البلادي، ص ٢٦٣، ٢٦٤، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة الكرمة، ط. الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

وبدأت قريش توفد الرسل والوسطاء إلى رسول الله (ﷺ)، جميعهم يحمل رسالة واضحة، وهي أن قريشًا لن تسمح للرسول (ﷺ) بدخول مكة عنوة، وكان ردّ الرسول (ﷺ) واضحًا، وهو أن المسلمين إنما جاءوا للعمرة، ولم يجيئوا لقتال أحد، وبعد عدة مراسلات من قريش، أراد رسول الله (ﷺ) أن يبعث سفيرًا يؤكد لدى قريش موقفه وهدفه من هذا الخروج، فأرسل عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وقال: **أخبرهم أنا لم نأتِ لقتال أحد، وإنما جئنا عُمارًا، وادعُهُم إلى الإسلام،** وجاء عثمان مكة، وبلغ الرسالة إلى زعماء قريش، فاحتبسوه عندهم، ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا فيما بينهم في الوضع الراهن، ويبرموا أمرهم، ثم يردوا عثمان بجواب ما جاء به من الرسالة، وطال الاحتباس، فشاع بين المسلمين أن عثمان قتل، فدعا رسول الله (ﷺ) أصحابه إلى البيعة، فثاروا إليه يبايعونه على ألا يفروا، وبايعه جماعة على الموت، وهذه هي بيعة الرضوان التي أنزل الله فيها: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وعرفت قريش ضيق الموقف، فأسرعت إلى إرسال سهيل بن عمرو لعقد الصلح، فأتي سهيل فاتفق مع رسول الله (ﷺ) على قواعد الصلح وبنوده، وهي:

١- الرسول (ﷺ) يرجع من عامه، فلا يدخل مكة، وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون..

٢- وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكفُّ بعضُهم عن بعض.

٣- من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

٤- من أتى محمدًا من قريش من غير إذن وليِّهِ ردَّه عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يُرَدّ عليه.

وغضب المسلمون وعمتهم كآبة وحزن شديد لسببين: الأول: أن الرسول (ﷺ) كان قد أخبرهم أنا سنأتي البيت فنطوف به، فما له يرجع ولم يطف به؟! الثاني: أنه رسول الله (ﷺ)، وعلى الحق، والله وعد بإظهار دينه، فما له قَبِلَ ضغط قريش، وأعطى الدنيَّة في الصلح؟! وغلب الهم والحزن على التفكير في عواقب الصلح، ولعل أعظمهم حزنًا كان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، إلى أن نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، فأرسل رسول الله (ﷺ) إلى عمر فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله، أوَفَتْحٌ هو؟ قال: **نعم**، فطابت نفسُهُ ورجع(١)، وتأكد بعد ذلك للقاصي والداني أن هذا الصلح كان خيرًا كبيرًا وفتحًا عظيمًا للإسلام والمسلمين، وهو ما سيتضح في مبحث "النتائج والثمرات".

والمتأمل في أحداث هذا الصلح وتفاصيله، يجد أن الرسول (ﷺ) قد وضع من خلاله أسس التعايش الذي نادى به الإسلام وأرسى قواعده، وإذا كان النبي (ﷺ) قد وضع أسسًا للتعايش الداخلي من خلال "وثيقة المدينة" التي وادَعَ فيها اليهود وغيرهم، فقد جاء صلح الحديبية ليضع النبي (ﷺ) من خلاله أسسًا للتعايش الإنساني بشكلٍ عام. وسوف أستخلص تلك الأسس والقواعد من خلال المطالب الآتية:

(١) راجع بتوسع: صحيح البخاري: كتاب الشروط – باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٢/٩٧٤ ح رقم ٢٥٨١، وصحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير – باب صلح الحديبية ٢/١٤٠٩ ح رقم ١٧٨٣ وما بعده، وسيرة ابن هشام ٣/٢٥٥ وما بعدها، دار الكتاب العربي، بيروت، ط. الثالثة ١٤١٠هـ/١٩٩٠م. تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، والرحيق المختوم: صفي الرحمن المباركفوري، ص ٣٢٥ وما بعدها، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط. الأولى ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.

المطلب الأول
تغليب السِّلم وحقن الدماء

السلم: ضد الحرب، ويقصد به: ((نبذ الخصومات بين الشعوب والجماعات، وقيام العلاقات بينهم على أساس الاستقرار والطمأنينة))(١)، ومن أسماء الله الحسنى: "السلام"، ويكفي لتأكيد أهمية السلم في الإسلام أن نلاحظ أن لفظ "الإسلام" نفسه مشتق منه، ذلك أن من أهدافه: ((السلام والمسالمة، ليعيش الناس آمنين على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، ولهذا شرع السلام للمؤمنين في تحية اللقاء، وفي تحية الانصراف من الصلاة؛ ليكون شعارًا لهم في غدوهم ورواحهم، وفي ردهم على من يجهل عليهم، قال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وحيث كان السلام شعار الإسلام، فالمراد منه معناه حقيقة وهي السلامة والأمان، ولذلك دعا الإسلام إلى المسالمة مع الجميع، فهي لا تقتصر على المسلمين وحدهم، بل تشمل غيرهم إن رغبوا في السلم ومالوا إليه، قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١] ولا غرابة في أن تُقبِل البلاد المفتوحة على الإسلام، فإنه دين السلام الذي بحثت عنه الإنسانية))(٢).

وانطلاقًا مما سبق، فالإسلام هو أحرص الأنظمة العالمية على إقامة سلام حقيقي قائم على الحق والعدل، والأصل في علاقات المسلمين بغيرهم هو السلم لا الحرب، وتأكيدًا لذلك فقد نهى رسول الله (ﷺ) عن تمني الحرب والرغبة فيها

---

(١) الإسلام في حياة المسلم: د. محمد البهي، ص ٤٨٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ط. الثانية ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

(٢) سماحة الإسلام: د. عمر بن عبد العزيز قريشي، ص ٤١ وما بعدها باختصار وتصرف، مكتبة الأديب، السعودية، ط. الثالثة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.

فقال: (**أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدوّ، وسَلُوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا**)(١)، وعليه فالحرب في الإسلام إنما هي استثناء وضرورة(٢).

وفي صلح الحديبية تأكيد على أن السلم والتعايش أصلٌ في الإسلام، فقد كان رسول الله (ﷺ) قبل صلح الحديبية في موقف المدافع عن نفسه، ففي بدر وأحد والأحزاب وغيرها كان الأعداء هم المبادرون بالاعتداء، ولأول مرة في صلح الحديبية يملك النبي (ﷺ) زمام المبادرة، وكان مقتضى الطبيعة البشرية أن يبادر بالاعتداء من باب المعاملة بالمثل ورد الاعتداء، ولكنه (ﷺ) لم يفعل، ففي الفرصة الأولى التي واتته كان الاتجاه إلى التهدئة وتغليب السلم وحقن الدماء، وقد تجلى ذلك بوضوح شديد منذ الخروج إلى الحديبية على النحو التالي:

- **الخروج محرمين ومُلبِّين تسبقهم الهدي:** قال ابن كثير (رحمه الله): ((وخرج رسول الله (ﷺ) بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، وساق معه الهدي، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائرًا لهذا البيت ومعظمًا له))(٣)، وهي رسالة سلام مفادها أن المسلمين لم يخرجوا لقتال، وإنما أتوا يريدون العمرة وهي حقٌّ لهم، ((وإحرام النبي وصحبه بالعمرة فحسب – وهم يريدون دخول مكة – آية على الرغبة العميقة

(١) رواه البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد والسير – باب كان النبي (ﷺ) إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس ١٠٨٢/٣ ح رقم ٢٨٠٤، ومسلم في صحيحه: كتاب الجهاد والسير – باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء ١٣٦٢/٣ ح رقم ١٧٤٢.

(٢) راجع بتوسع: العلاقات الدولية في الإسلام: الشيخ محمد أبو زهرة، ص ٥٠ وما بعدها، دار الفكر العربي، القاهرة، طبعة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ١٦٤/٤، مكتبة المعارف، بيروت، بدون تاريخ.

في السلم، وعلى الرغبة في نسيان الخصومات السابقة، وتأسيس علائق أهدأ وأرقّ))(١).

– **تغيير الطريق واعتماد عنصر المفاجأة لتجنب الصدام:** فبالرغم من إعلانه (ﷺ) أنه خرج معتمرًا لا يريد حربًا، فقد قدَّم بين يديه طلائع من الفرسان بقيادة عباد بن بشر (رضي الله عنه) تحسبًا لأي طارئ وللقيام بأعمال الاستكشاف، كما أنه بعث عيناً إلى مكة ليوافيه بالأخبار، فيتخذ لكل أمرٍ عدته، ويرسم لكل شيءٍ خطته، فجاءته الأخبار أن مائتي فارس بقيادة خالد بن الوليد مرابطة بكُراع الغَميم(٢) في الطريق الرئيسي الذي يوصل إلى مكة، وقد حاول خالد صدّ المسلمين، فقال (ﷺ): **(إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش)**، وسلك بالجيش طريقًا وعرًا بين الشعاب، وفوجئ خالد بتحول جيش المسلمين، فانطلق يركض نذيرًا لقريش(٣)، ولم يكن تغيير المسلمين للطريق ((خوفًا من قوات الجيش، فالذي يخاف من عدوه لا يقترب من قاعدته الأصلية، وهي مركز قواته، بل يحاول الابتعاد عن قاعدة العدو الأصلية حتى يطيل خط مواصلات العدو، وبذلك يزيد من صعوباته ومشاكله ويجعل فرصة النصر أمامه أقل من

(١) فقه السيرة: الشيخ محمد الغزالي، ص ٣٤٨، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط. السادسة ١٩٦٥م. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.

(٢) كُراع الغَميم: تقع على مسافة (٦٤) كم من مكة المكرمة، وتعرف اليوم ببَرْقَاء الغميم، والبرقاء: مرتفع تختلط فيه الحجارة بالرمل. راجع: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية: عاتق بن غيث البلادي، ص ٢٦٣، ٢٦٤.

(٣) راجع بتوسع: صحيح البخاري ٩٧٤/٢، وسيرة ابن هشام ٢٥٧/٣، موسوعة الغزوات الكبرى "صلح الحديبية": محمد أحمد باشميل، ٢٧٣/٥، ٢٧٤، المكتبة السلفية، القاهرة، ط. الثالثة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

حالة الاقتراب من قاعدته الأصلية))[1]، وإنما كان تغيير الطريق تجنبًا للصدام، وبهذا تفادى رسول الله (ﷺ) إشعال نار حرب لم يكن راغبًا في إشعالها، وعلَّم الصحابةَ بذلك درسًا في ضبط النفس وعدم الانجرار إلى معارك جانبية تسال فيها الدماء، وهو الذي كان يستطيع أن يتخذ من استفزاز قريش مبررًا للدخول معها في صدام مسلح.

- **إعلان القبول بأي خطة صلح تعرضها قريش:** تحرك رسول الله (ﷺ) بالمسلمين، وبينما كان يقترب من حدود الحرم (في منطقة الحديبية)، حدث حادثٌ عجيب عاقه عن اجتياز حدود الحرم، وكأن الله تعالى أراد بذلك الحادث العجيب أن يجنِّب الفريقين مأساة مجزرة رهيبة، كانت وشيكة الحدوث، لو اجتاز النبي (ﷺ) بأصحابه حدود الحرم نحو مكة[2]، فقد بركت ناقته، وحاول الناس إنهاضها، فلم تنهض، فقالوا: خَلأَت القصواء (أي حَرِنت)، فقال النبي (ﷺ): **ما خلأت القصواء، وما ذَاكَ لها بخُلُق** (أي عادة)، **ولكن حبسها حابسُ الفيل**، ثم قال: **(والذي نفسي بيده، لا يسألوني خُطة يعظِّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتُهم إياها)**[3]، وفي رواية: **(والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها)**[4]، وهذا إعلان صريح يؤكد حرص النبي (ﷺ) على تجنب المواجهة، وقبوله بأي خطة صلح يتم بموجبها حقن الدماء، وتعظيم الحرمات، وصلة الرحم، وهو في سبيل ذلك يبذل

(١) الرسول القائد: محمود شيت خطاب، ص ١٨٦، ١٨٧، دار مكتبة الحياة، ومكتبة النهضة، بغداد، ط. الثانية ١٩٦٠م.

(٢) موسوعة الغزوات الكبرى "صلح الحديبية": محمد أحمد باشميل، ١٤٥/٥.

(٣) صحيح البخاري ٩٧٤/٢ ح رقم ٢٥٨١ (مرجع سابق).

(٤) رواه أحمد في مسنده ٣٢٣/٤ ح رقم ١٨٩١٠.

كل ما في وسعه لإقرار السلام والتعايش والأمان، ومنع إراقة الدماء في الحرم، وقد استنبط ابن حجر فائدة جليلة من قوله (ﷺ): **(حبسها حابس الفيل)** فقال: وفي هذه القصة جواز التشبيه من الجهة العامة، وإن اختلفت الجهة الخاصة، لأن أصحاب الفيل كانوا على باطل محض، وأصحاب هذه الناقة كانوا على حق محض، لكن جاء التشبيه من جهة إرادة الله منع الحرم مطلقًا، أما من أهل الباطل فواضح، وأما من أهل الحق فللمعنى الذي تقدم ذكره(١).

– **تبليغ قريش بالنوايا السلمية رسميًّا:** فقد استقر النبي (ﷺ) في الحديبية، وأصدر أوامره بعدم اجتياز حدود الحرم حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولا، وراح النبي (ﷺ) يؤكد لقريش نواياه السلمية من خلال السفارات، سواء الذين أرسلهم أو الذين استقبلهم، ((فقد أوفدت قريش أربع وفادات، الواحد تلو الآخر للتأكد من صدق الخبر، وفي كل مرة كان يرى الوافد أن المسلمين ساقوا معهم الهدي، وأن قصدهم العمرة وليس القتال، ثم أوفد إليهم النبي (ﷺ) عثمان بن عفان (رضي الله عنه) متحدثًا رسميًّا عن المسلمين بأنهم جاءوا معتمرين لا مقاتلين))(٢)، حتى تعالت أصوات العقلاء من قريش وحلفائها بأن المصلحة في مسالمة الرجل وقبول التفاوض معه، فهذا الحُلَيْس بن علقمة لما رأى الهدي بعينيه وسمع التلبية بأذنيه قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدوا عن البيت، ورجع إلى قريش يقول: رأيتُ البُدنَ قد قُلدت وأُشعرت، وما أرى أن يُصدوا، وقال عروة بن مسعود الثقفي: إن هذا قد عرض عليكم خطة رشدٍ (أي: خصلة خير وصلاح وإنصاف) فاقبلوها، وكانت رسالة النبي (ﷺ) واحدة للجميع وهي: **(إنا**

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٣٣٦/٥، دار المعرفة، بيروت، طبعة ١٣٧٩هـ.

(٢) سماحة الإسلام في الدعوة إلى الله والعلاقات الإنسانية: د. عبد العظيم المطعني، ص ١٣٥، مكتبة وهبة، القاهرة، ط. الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين)، فهي واضحة غاية الوضوح، ومعبرة عن رغبة النبي (ﷺ) في الصلح، واستعداده للتفاوض، وكان لسان حال المسلمين ناطقًا بتلك الرغبة، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال.

- **احتواء تعنُّت قريش وضبط النفس تجاه حماقات شبابها:** كان المتوقع من قريش – بعد كل ما بذله رسول الله (ﷺ) من محاولات للتهدئة وتهيئة الأجواء للصلح والتفاوض – أن تسلك سبيل الاعتدال وتخفف من غلوائها وتعنتها، وتكبح جماح سفهائها الذين سعوا إلى تصعيد الأزمة وزيادة حدة التوتر، ذلك أن سبعين أو ثمانين من شباب قريش الطائشين قرروا أن يخرجوا ليلاً، ويتسللوا إلى معسكر المسلمين، ويحدثوا أحداثًا تشعل نار الحرب، فهبطوا من جبل التنعيم، وحاولوا التسلل إلى معسكر المسلمين، غير أن محمد بن مسلمة "قائد الحرس" اعتقلهم جميعًا، ورغبةً في الصلح أطلق النبي (ﷺ) سراحهم وعفا عنهم، قائلاً لأصحابه: **(دعُوهُم يكن لهم بدء الفُجُور)**(١)، وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ**﴾ [الفتح: ٢٤]، ولو كان رسول (ﷺ) الله يريد قتالاً أو يسعى إلى انتقام وتصفية حسابات، لفجع قريشًا في هؤلاء السبعين، وكفى به نصرًا وفق الحسابات البشرية، لكنه (ﷺ) آثر تغليب السلم، وسعى بكل ما أوتي من قوة إلى تحاشي الصدام.

- **التأكيد على السلمية في بنود الصلح:** فقد سعى رسول الله (ﷺ) إلى الصلح، وقَبِل بشروط قريش رغم ما يبدو فيها من إجحاف بحق المسلمين، ومن ذلك: قبوله بالرجوع إلى المدينة عامه هذا وعدم الطواف بالبيت وهو قريب منه، وقبوله أن يردّ من أتاه منهم مسلمًا، وألا يردُّون هم من أتاهم من المسلمين

(١) تاريخ الطبري ٢/١٢٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى ١٤٠٧هـ.

مرتدًّا، قبل النبي (ﷺ) بهذا وغيره، حرصًا منه على وقف الحرب ولو لفترة يأمن فيها الناس على أنفسهم وأموالهم، وقد جاء النص على ذلك في بنود الصلح، وعبارته: **(وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض)**(١).

وتلك هي مقومات التعايش الذي مهد له رسول الله (ﷺ) وسعى إلى تحقيقه بهذا الصلح التاريخي، وبذلك يكون للنبي (ﷺ) الفضل الأكبر – بعد الله (ﷻ) في تحقيق السلام في ربوع الجزيرة العربية بعد قرون طويلة من الحروب الطاحنة والمعارك المستمرة.

(١) سيرة ابن هشام ٣/٢٦٤.

المطلب الثاني
القوة والحزم

لقد حث الإسلام أتباعه على أن يكونوا أقوياء في كافة جوانب حياتهم، حتى يكتسبوا الثقة بأنفسهم، وينالوا احترام عدوهم، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فهي دعوة إلى الإعداد والاستعداد لتحقيق القوة بمفهومها الشامل، الذي يتضمن قوة الساعد والسلاح، وقوة العلم، وقوة الاقتصاد، وقبل ذلك كله قوة العقيدة ورسوخ الإيمان، فهذه القوة من شأنها أن ترهب أعداء الإسلام، وتجعلهم يهابون المسلمين، بل ويسعون لمسالمتهم ومهادنتهم، وهو ما أشارت إليه الآية التالية، قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٦١]، وعليه فلا استمرار لسلام ولا استقرار لتعايش ما لم تكن ثمة قوة تحميه وتحمل الخصوم عليه، وتردع كل من تسول له نفسه أن يخل به أو يقوض الأسس التي قام عليها، ((ومن هنا يصح القول بأن مفهوم القوة من المفاهيم الرئيسة في علم العلاقات الدولية، حيث يكاد يكون هناك إجماع عام بين المهتمين بالعلاقات الدولية قديمًا وحديثًا على أن ركيزتها الأساسية تتمثل في القوة، وأن المعاهدات ليست كافية بذاتها لتحقيق الأمن، وإنما يتعين أن تقف القوة من ورائها ضماناً للالتزام بها))(١).

وقد برزت تلك القوة في صلح الحديبية من خلال مواقف كثيرة، أذكر منها: توقيت الخروج: فقد يئس أعداء الإسلام من كسر شوكة المسلمين، ((وخاصة بعد اندحار قريش وأحلافها في غزوة الأحزاب، فبعد هذا الاندحار الشنيع،

(١) صلح الحديبية وأبعاده السياسية المعاصرة: د. عبد الحكيم الفيتوري، ص ٩٣ باختصار، دار المدني، السعودية، ط. الثالثة ٢٠٠٥م.

ازدادت قواعد الدولة الإسلامية صلابة وقوة، وأخذ الإسلام يضرب بجذوره وينشر ظلاله في الجزيرة بسرعة هائلة وبشكل لم يسبق له مثيل، وأصبح المسلمون – بعد فشل الأحزاب في غزوهم وبعد إنزال الضربة الصاعقة بخونة بني قريظة – قوة ضاربة يخشاها كل أعداء الإسلام، وخاصة العناصر العربية الوثنية))(١)، وهو ما عبر عنه النبي (ﷺ) بقوله: **(الآن نغزُوهم ولا يغزوننا، نحن نسيرُ إليهم)**(٢)، وجاء صلح الحديبية بعد ذلك ليكون بمثابة تتويج لهيبة المسلمين، واعتراف بقوة الإسلام، وهكذا تحول الموقف بعد هزيمة الأحزاب لصالح المسلمين، فخرجوا للحديبية من مركز قوة، وصار النبي (ﷺ) سيدَ الموقف؛ لذا فقد رأى الوقت مناسبًا لفرض الهدنة وتهيئة الجزيرة للتعايش.

لقد قصد رسول الله (ﷺ) بالخروج في هذا التوقيت: ((إيصال رسالة عسكرية لقيادات قريش، والعرب من حولهم، بأن للدولة الإسلامية قوة عسكرية لا يستهان بها في حماية كيانها ودعوتها وقيادتها داخل حدودها الجغرافية والديمغرافية، بل لها القدرة على مصاولة أعدائها خارج حدودها الجغرافية))(٣).

وخرج رسول الله (ﷺ) بالمسلمين، فلما وصل الحديبية واطمأن بها، جاءه بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي في نفرٍ من قومه من خزاعة، وكانوا عَيْبَة نصح(٤)

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى "صلح الحديبية": محمد أحمد باشميل ١٠٦/٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه: كتاب المغازي – باب غزوة الخندق وهي الأحزاب ١٥٠٩/٤ ح رقم ٣٨٤٨ من حديث سليمان بن صرد (رضي الله عنه).

(٣) صلح الحديبية وأبعاده السياسية المعاصرة: د. عبد الحكيم الفيتوري، ص ١٧.

(٤) المقصود: أنهم كانوا موضع النصح لرسول الله (ﷺ) والأمانة على سره. راجع: فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٣٣٧/٥.

رسول الله (ﷺ) من أهل تهامة، فأخبروه أن قريشًا مقاتلوه وصادوه عن البيت، فقال (ﷺ): **(إنَّا لم نجِئْ لقتالِ أَحدٍ، ولكنَّا جِئْنا مُعتمرينَ، وإنَّ قريشًا قد نهكَتْهم الحربُ**(١) **وأضرَّت بهم، فإنْ شاءوا مادَدْتُهم مدَّةً**(٢) **ويُخلُّوا بيني وبيْنَ النَّاسِ، فإنْ أظهَرْ فإن شاءوا أنْ يدخُلوا فيما دخَل فيه النَّاسُ فعَلوا، وإلا فقد جَمُّوا**(٣)**، وإنْ هم أَبَوْا فوالَّذي نفسي بيدِه لأُقاتِلَنَّهم على أمري هذا حتَّى تنفرِدَ سالفتي، ولَيُنفِذَنَّ اللهُ أمرَه)**(٤)، والمتأمل في هذا الحوار، يتبين له قوة رسول الله (ﷺ) ومضاء عزمه، وأنه لا يخاف الأعداء ولو اجتمعوا لحربه، وقد رغَّبهم الرسول (ﷺ) بالسلم، وأبدى استعداده التام للحرب في ذات الوقت إن لزم الأمر، وقد ظهر ذلك في قوله: **(وإنْ هم أَبَوْا فوالَّذي نفسي بيدِه لأُقاتِلَنَّهم على أمري هذا حتَّى تنفرِدَ سالفتي)** وهو كناية عن القتال حتى الموت.

ولم تَحسم سفارة بُدَيْل بن ورقاء الموقف، فعرض عروة بن مسعود الثقفي أن يذهب إلى رسول الله (ﷺ)، فأتاه فجعل يكلمه، فقال له النبي (ﷺ) نحوًا من قوله لبديل، فلجأ عروة إلى سلاح آخر، وهو التشكيك والطعن، تشكيك النبي (ﷺ) في صحة موقفه، والطعن في صحابته ليهز ثقته فيهم، حيث قال: أي محمد، أرأيت لو استأصلتَ قومك، هل سمعتَ بأحدٍ من العرب اجتاح أهلَه

(١) نهكَتْهم الحرب: أي: أبلغت فيهم حتى أضعفتهم، إما أضعفت قوتهم، أو أضعفت أموالهم. راجع: السابق ٣٣٨/٥.

(٢) مادَدْتُهم مدَّة: أي: جعلتُ بيني وبينهم مدة بترك الحرب بيننا وبينهم. راجع: السابق ٣٣٨/٥.

(٣) جَمُّوا: أي استراحوا. راجع: السابق ٣٣٨/٥.

(٤) رواه البخاري في صحيحه: كتاب الشروط – باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٩٧٤/٢ ح رقم ٢٥٨١.

قبلك؟ وإن تكن الأخرى فوالله إني لا أرى وجوهًا، وإني أرى أوشابًا من الناس خليقًا أن يفرُّوا ويَدَعوك، يقصد أن جيش النبي (ﷺ) يضم أخلاطًا ليسوا من قبيلة واحدة، ((ومعنى ذلك أن العادة جرت أن الجيوش المجمعة لا يؤمن عليها الفرار، بخلاف من كانوا من قبيلة واحدة فإنهم يأنفون الفرار في العادة، وما درى عروة أن مودة الإسلام أعظم من مودة القرابة، وقد ظهر له ذلك من مبالغة الصحابة في تعظيم النبي (ﷺ))[1]، فعندما سمع الصحابة ﷺ تشكيك عروة في قوة الجيش المسلم، قال له أبو بكر الصديق (ﷺ): امصُص بَظْرَ اللات[2]، أنحن نفرُّ عنه ونَدَعه؟! وجعل عروة يكلم النبي (ﷺ)، وكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة عند رأس النبي (ﷺ) ومعه السيف، فكلما أهوى عروة إلى لحية النبي (ﷺ) ضرب يدَه بنعل السيف، وقال: أخِّر يدَك عن لحية رسول الله (ﷺ)، وهَالَ عروة ما رأى من حب الصحابة لقائدهم (ﷺ) وشدة تعظيمهم له وحرصهم عليه، والدفاع عنه حتى من مس اليد، فرجع إلى قريش يقول: أي قوم، والله لقد وفدتُ على الملوك، على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيتُ ملكًا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ محمدًا، وذكر أنه إذا

(١) فقه الدعوة في صلح الحديبية: د. سليمان بن قاسم بن محمد العيد، بحث (منشور) في المجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، المجلد (١٩)، العدد (٣٧) لسنة ١٤٢٥هـ، ص ١٢٦.

(٢) البَظر (بفتح الباء وسكون الظاء): قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة، واللات: اسم أحد الأصنام التي كانت قريش وثقيف يعبدونها، وكانت عادة العرب الشتم بذلك لكن بلفظ الأم، فأراد أبو بكر المبالغة في سب عروة بإقامة مَن كان يعبد مقام أمه، وحمله على ذلك ما أغضبه من نسبة المسلمين إلى الفرار. راجع: فتح الباري لابن حجر ٣٤٠/٥.

أمرهم ابتدروا أمره، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون النظر إليه تعظيمًا له، ثم قال: وقد عرض عليكم خطة رشدٍ فاقبلوها(١).

لقد أثارت مشاهد القوة الرعب في قلب عروة، فرجع يحث قريشًا على القبول بالتفاوض، فعندما استدعى الأمر إظهار القوة أمام عروة، فعل الصحابة ذلك؛ لإيصال رسالة مفادها أن الصف المسلم متماسك وملتف حول قيادته، وأنهم لن يسلموا رسول الله (ﷺ) ولن يفروا عنه، والهدف من وراء ذلك فرض الهيبة وتهيئة الأجواء للهدنة.

وعندما أوفد رسولُ الله (ﷺ) عثمانَ بن عفان (رضي الله عنه) إلى قريش، وأشيع بأنه قد قتل، دعا إلى البيعة، وهي بيعة حرب وموت في سبيل الله إن استدعى الأمر، ((فقد خرج رسول الله (ﷺ) مسالما لا يريد حربًا، وجعل على ذلك علامات ظاهرة، وهي الإحرام، وسوق الهدي، إلا أنه مع ذلك حسب حسابه وأعدَّ عدته لو لزمت الحرب، فإن الأعداء لا يؤمن شرهم، فالسلم لمن أراد السلم جادًّا، والحرب لمن أراد الحرب، وفي هذا الصنيع من قائد الدعوة تنبيه على ضرورة الإعداد للحرب حتى في وقت السلم، فلا تلقي الأمة بزمامها، وتهمل سلاحها معتمدةً في ذلك على السلم))(٢)، وهو ما يؤكد أن لغة القوة تكون مطلوبة أحيانًا، فاستعمال القوة أو التلويح بها يحسم كثيرًا من المواقف، الأمر الذي يؤكد ضرورة القوة لفرض السلام، وحماية المعاهدات، ونجاح التعايش.

(١) رواه البخاري في صحيحه: كتاب الشروط – باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٢/٩٧٤ ح رقم ٢٥٨١.

(٢) فقه الدعوة في صلح الحديبية: د. سليمان بن قاسم العيد، ص ١٢٩.

المطلب الثالث
المعرفة بالآخر وفهمه

رغم أننا في عصر الفضائيات والسموات المفتوحة، فلا زلنا نحن المسلمين نجهل الكثير عن غيرنا، ولا زال الكثيرون من غير المسلمين عندهم قصور في فهم الإسلام ديناً وتاريخاً وثقافة، وهذا الجهل بالآخر عقبة في طريق التعايش معه بلا شك. يتساءل د. راغب السرجاني: ((ما السر في أزمة العالم، وفي صراعه وصدامه، وحقده وكراهيته؟ السر في ذلك هو "الجهل" بمن يحيط بنا من أمم وشعوب! قالوا قديمًا: "الإنسان عدو ما يجهل"، وعلاج هذا الجهل في كلمة واحدة هي: "التعارف"، فهو بداية نجاة العالم، وصلاح البشرية، وتعايش الناس تعايشاً منطقيًّا سلميًّا نافعًا إيجابيًّا، وهو حتمية إنسانية، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣] إنه ليس خطابًا للمسلمين أو للمؤمنين، إنه خطاب للناس، لكل الأعراق والأجناس والشعوب والحضارات في كل بقاع الأرض، وفي كل مراحل التاريخ، أيها الناس، خلقتم مختلفين، لا لتتشاحنوا وتتباغضوا، ولكن "لتعارفوا"..)) (١)، ومن هذا المنطلق فإن التعرف على ثقافات الأمم وفهم الشعوب أمر ضروري، بل هو أساس من الأسس التي يقوم عليها التعايش، ومما عده العلماء من صفات الداعية الناجح: المعرفة بأهل زمانه، وتتحقق هذه المعرفة بالمخالطة المنضبطة، فقد حث عليها رسول الله (ﷺ) وجعلها علامة خيرية للمؤمن فقال: **(المؤمنُ الذي يُخالِط الناسَ ويصبِر على أذاهم خيرٌ من الذي لا يخالط الناسَ ولا يصبر على أذاهم)**(٢).

---

(١) راجع بتوسع: المشترك الإنساني: د. راغب السرجاني، ص ٨ وما بعدها، مؤسسة اقرأ، القاهرة، ط. الأولى ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

(٢) أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" ١/١٤٠ ح رقم ٣٨٨، وقال الحافظ في الفتح (١٠/٥١٢): أخرجه ابن ماجة بسند حسن عن ابن عمر (رضي الله عنه).

والمطالع لأحداث صلح الحديبية، يتبين له – بوضوح – معرفة النبي (ﷺ) بالآخر وفهمه له، ومن ثم التعامل مع كل شخصية بما يناسبها، وقد ظهر ذلك من خلال السفارات التي جرت بينه وبين قريش، فما إن استقر النبي (ﷺ) في الحديبية حتى جاءه بُديل بن ورقاء، وكان رجلاً عاقلاً، ولذلك كلمه النبي (ﷺ) بمنطق العقل، واقتنع بديل ومن معه بأحقية النبي (ﷺ) في زيارة بيت الله وتعظيمه، لكن قريشًا رفضت الاستماع لصوت العقل.

وجاء عروة بن مسعود الثقفي، فاستقبله النبي (ﷺ) واستمع إليه وأنصت لحديثه، وما إن علا صوته وتغير أسلوبه، وشرع ينتقص من أصحاب رسول الله (ﷺ) ويقلل من شأنهم، حتى انتفض أبو بكر (رضي الله عنه) وأغلظ له في القول بعبارة: (امصُص بظر اللات)، وهي عبارة سَبٍّ وإهانة لم تكن معتادة من الصِّدِّيق، ولكن الموقف هو الذي اقتضى ذلك. ورأى الصحابة ﷺ جرأة عروة على النبي (ﷺ)، فأظهروا تعظيمهم وتوقيرهم للنبي (ﷺ) بطريقة أذهلت عروة، فعاد يستحث قريشًا على قبول الصلح والتفاوض مع رسول الله (ﷺ)، بل ويضغط لأجل ذلك، ولما رأى تعنت قريش وإصرارها، قال لهم: ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة، ثم انصرف هو ومن معه من ثقيف إلى الطائف(١)، فكان هذا أول انشقاق في معسكر قريش.

وجاء الحُليس بن علقمة الكناني "سيد الأحابيش"، فلما أشرف على النبي (ﷺ) وأصحابه قال رسول الله (ﷺ): **(إن هذا من قومٍ يتألَّهون** [أي: يتعبَّدون]، **فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه)**، فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده، وقد أكل أوبارَه من طول الحبس عن محله، رجع إلى قريش،

(١) راجع السيرة الحلبية: علي بن برهان الدين الحلبي ٢/٧٠٠، دار المعرفة، بيروت، طبعة ١٤٠٠هـ.

ولم يصل إلى رسول الله (ﷺ) إعظامًا لما رأى، وقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيُصَدُّ عن بيت الله من جاء معظِّمًا له؟! والذي نفس الحليس بيده لتُخَلُّنَّ بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفِرَنَّ بالأحابيش نفرة رجل واحد(١).

إن ما فعله رسول الله (ﷺ) مع الحليس، يدل دلالة واضحة على عمق فهمه للشخصيات التي يتعامل معها، الأمر الذي ساعد على تغيير مواقف هؤلاء الذين أوفدتهم قريش، وهكذا كان رسول الله (ﷺ) ((خبيرًا بتجنيد كل قوة في يديه، إن قوة رأي، وإن قوة لسان، وإن قوة نفوذ، وقد حقق بذلك غرضين أصيلين: هما: إقناع خصمه والناس بحقه، وإضعافه عن قتاله بإضعاف عزمه وإيقاع الشتات بين صفوفه))(٢).

وجاء مِكرَز بن حفص، فلما رآه رسول الله (ﷺ) قادمًا قال: **(هذا مكرز، وهو رجلٌ فاجر)**، وفي رواية ابن إسحاق: **(هذا رجلٌ غادر)**(٣)، وكان مكرز معروفا بالغدر.

وجاء سهيل بن عمرو، فلما رآه رسول الله (ﷺ) قادمًا قال: **(لقد سُهِّل لكم من أمركم)**، وفي رواية ابن إسحاق: **(قد أراد القومُ الصلحَ حين بعثوا هذا الرجل)**(٤)، فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله (ﷺ) تكلم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٥٩/٣.

(٢) عبقرية محمد (ﷺ): عباس محمود العقاد، ص ٤٧ باختصار وتصرف، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، طبعة ١٩٨٠م.

(٣) سيرة ابن هشام ٢٥٩/٣.

(٤) المرجع السابق ٢٦٣/٣.

ومما سبق يتبين أن النبي (ﷺ) وأصحابه كانوا على معرفة تامة بالرجال الذين ترسلهم قريش للتفاوض، وكانت لديهم القدرة على تقييم موقف كل منهم حتى قبل وصوله، وفهم ما يحمله، وإدراك كيفية التأثير عليه ومخاطبته بالطريقة التي تناسبه، فهذا يشتد عليه الصحابة ويظهرون أمامه حبهم وتعظيمهم لقائدهم (ﷺ)، وآخر يسوقون في وجهه الهدي ويستقبلونه رافعين أصواتهم بالتلبية، وثالث يحذرهم رسول الله (ﷺ) من فجوره وغدره، ورابع يبشرهم رسول الله (ﷺ) بقدومه، ويخبرهم بأن أمرهم قد سُهِّل.

وأراد رسول الله (ﷺ) أن يبعث رجلاً من أصحابه إلى قريش لإعلامهم بأنه إنما قدم معتمرًا، وأنه لا يرُوم حربًا ولا يريد قتالاً، فوقع الاختيار على عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وهو اختيار فيه دلالة على معرفة النبي (ﷺ) بقريش، فقد كان عثمان مقبولاً لديهم ومحبوبًا بينهم، حتى إن المرأة من قريش كانت تُرقِّص صبيَّها وهي تقول:

أُحِبُّــك والرحمــن ** حُبَّ قريشٍ لعثمان(١)

ومما سبق يتبين، أن النبي (ﷺ) كان ذا خبرة كبيرة بقريش وحلفائها، وكان عارفًا بطبائعهم، الأمر الذي ساعد على التعامل مع كل شخصية بما يناسبها، وبالتالي تغيرت مواقف مبعوثي قريش، واستطاع النبي (ﷺ) أن يخلق رأيًا عاما مساندًا لقضيته، وضاغطًا على قريش حتى قبلت بالصلح ونزلت على رغبته (ﷺ).

(١) ذكره ابن الأعرابي في معجمه ٤٦١/٢، دار ابن الجــوزي، الــسعودية، ط. الأولــى ١٤١٨هــ/١٩٩٧م. تحقيق: عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني.

المطلب الرابع
التمسك بالثوابت والحفاظ على المبادئ

إذا كان التعايش فضيلة فهو وسط بين رذيلتين، إحداهما: الانفتاح غير المنضبط، وهو الذي يسعى أصحابه إلى إرضاء غير المسلمين ومداهنتهم على حساب ثوابت الشريعة ومبادئها تحت مسمى "التعايش"، والأخرى: العزلة والانغلاق والقطيعة مع الآخر، تلك القطيعة التي تبدأ برفض الآخر وإقصائه، وتصل إلى الصدام معه والعمل على استئصاله، والانفتاح غير المنضبط والعزلة كلاهما مذموم، فقد دعا الإسلام إلى التقارب والتعايش مع غير المسلمين بالضوابط الشرعية والقواعد المرعية، ومن هذه الضوابط: التمسك بالأصول والثوابت الإسلامية، فقد شجع الإسلام على التعايش ((بحيث يصبح المسلمون في تناسق واندماج مع العالم الذي يعيشون فيه، بما يضمن تفاعلهم مع الآخر وتواصلهم معه دون تفريط في الثوابت الإسلامية))(١)، فالتفريط في الثوابت منكرٌ عظيم لا يبقى معه دين ولا يستقيم معه تعايش، وبالتالي ((ينبغي علينا ونحن نبحث في مفهوم التعايش السلمي أن نميز بين المشتركات الإنسانية العامة، وبين ما هو خصوصية حضارية، فالتعايش غير الاندماج، وليس بالضرورة أن يتنازل المسلم عن معتقده وقناعاته الفكرية إلى الآخرين مقابل العيش معهم بسلام))(٢).

ومن ضوابط التعايش أيضًا: الحفاظ على الهوية واحترام الخصوصية الثقافية، فالتعايش مع الآخر والتقارب معه لا يعني الذوبان في ثقافته وتقبل مبادئه، كما

---

(١) النماذج الأربعة من هدي النبي (ﷺ) في التعايش مع الآخر: د. علي جمعة، ص ٥، دار الفاروق، الجيزة، مصر، ط. الأولى ٢٠١٣م.

(٢) التعايش السلمي في المدينة في ضوء الصحيفة: د. عبد الله خلف، ص ٥٧٩.

أنه ((لا يعني – بأي حال من الأحوال – تمييع المواقف، وخلط الأوراق، ومزج العقائد وتذويبها وصبها في قالب واحد، حتى وإن زعموا أنه قالب إنساني في الصميم، ذلك أن أصحاب العقائد السليمة لا يقبلون هذا الخلط المريب الغامض، ويرفضون – رفضًا بصيرًا واعيًا – أن يفرطوا في خصوصياتهم ومقوماتهم وقيمهم، خشية أن يوصموا بالتعصب، فالتعايش الذي يسلب المسلم هويته هو ليس بتعايش، وإنما هو غش واحتيال وتضليل، أما إذا كان التعايش هو أن يحتفظ كل طرف بدينه كاملاً غير منقوص، ويتشبث بمكونات هويته وافرةً غير مسلوبة، كان هو عين القصد، وجوهر التعامل الذي نسعى إلى إقامته مع غير المسلمين))(١)، وعليه، فالتعايش الذي حث عليه الإسلام ورغَّب فيه لا يعني التخلي عن الثوابت، أو التفريط في المبادئ والحقوق، أو المساومة عليها تحت أي مسمى.

لقد حرص النبي (ﷺ) وهو يؤسس للتعايش الإنساني في صلح الحديبية على التمسك بثوابت دينه ومبادئ دعوته، وقد ظهر ذلك واضحًا في كلماته (ﷺ) عندما بركت ناقته القصواء على مشارف بيت الله الحرام فقال: **(والذي نفسي بيده، لا يسألوني خُطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتُهم إياها)**، فهو يعلن قبوله بأي خطة صلح تعرضها قريش، شريطة أن تتضمن الخطة: تعظيم حرمات الله، وهو مبدأ يجب مراعاته وعدم التفريط فيه مهما كان الثمن أو المقابل، وفي ذلك يقول ابن القيم (رحمه الله): ((إن المشركين وأهل البدع والفجور والبغاة والظلمة إذا طلبوا أمرًا يعظمون فيه حرمة من حرمات الله تعالى، أُجيبوا إليه وأُعطوه، وأُعينوا عليه، وإن مُنعوا غيره، فيعاوَنون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى، لا على كفرهم وبغيهم، ويُمنعون مما سوى ذلك، فكل

(١) الإسلام والتعايش بين الأديان: د. عبد العزيز التويجري، ص ٣٠، ٣١.

من التمس المعاونة على محبوبٍ لله تعالى مُرْضٍ له، أجيب إلى ذلك كائنًا من كان، ما لم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب مبغوض لله أعظم منه، وهذا من أدقّ المواضع وأصعبها وأشقها على النفوس، ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق، وقال عمر ما قال، حتى عمل له أعمالاً بعده))(١)، فالمهم أن تعظم حرمات الله، ويُسعى في الحفاظ عليها.

وعندما توسط بُديل بن ورقاء بين رسول الله (ﷺ) وبين قريش، حمَّله النبي (ﷺ) رسالةً لقريش، أكَّد فيها على السلمية، ثم قال: **(فإنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، ويُخَلُّوا بَيْنِي وبيْنَ النَّاسِ، فإنْ أظْهَرْ: فإنْ شَاءُوا أنْ يَدْخُلُوا فِيما دَخَلَ فيه النَّاسُ فَعَلُوا، وإلا فقَدْ جَمُّوا، وإنْ هُمْ أبَوْا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ لأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أمْرِي هذا حتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، ولَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أمْرَهُ)**، فقد أعلن النبي (ﷺ) أنه ما جاء لقتال، وإنما جاء للعمرة، وطلب الهدنة، لا عن ضعف أو استسلام، وإنما بغرض التفرغ للدعوة ونشر الإسلام، وهم بعد ذلك مخيرون بين الدخول فيما دخل فيه الناس، وإلا فالمواجهة حتمية، تلك المواجهة التي أقسم رسول الله (ﷺ) أن يخوضها لو كان فيها حتفه، وهكذا يعلن النبي (ﷺ) رغبته في الصلح، وفي ذات الوقت يعلن استعداداه للقتال إن اضطر إليه، وهو في ذلك متقدم غير هياب، مقبل غير مدبر، حتى يمن الله عليه بإحدى الحسنيين: الشهادة، أو النصر وظهور أمر الله، فهي دعوة للتعايش لا يشوبها ضعف أو تنازل أو تفريط، فهو يعرض الصلح وهو قادر على القتال إذا لم يتعين طريق غيره لنصرة قضيته وإعلاء أمر دعوته.

(١) زاد المعاد لابن القيم ٣٠٣/٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط. السابعة والعشرون ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

لقد فعل رسول الله (ﷺ) كل ما في وسعه لتجنب الصدام مع قريش، وفي ذات الوقت أكد لكل من لقيه أنه ماضٍ في طريقه لتبليغ رسالة ربه حتى يتحقق له ما أراد أو يهلك دونه، ففي حواره مع بشر بن سفيان الكعبي قال (ﷺ): **(فما تظن قريش؟! فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة)**(١)، وفي حواره (ﷺ) مع عروة بن مسعود، جاء في كلام عروة: يا محمد، ما هذا الحديث؟! تدعو إلى ذات الله، ثم جئتَ قومك بأوباش الناس، مَن تعرف ومن لا تعرف، لتقطع أرحامهم، وتستحل حرمتهم ودماءهم وأموالهم!! فقال (ﷺ): **إني لم آتِ قومي إلا لأصلَ أرحامَهم، يبدلهم الله بدينٍ خيرٍ من دينهم، ومعايش خير من معايشهم**، فرجع حامدًا يحسن الثناء(٢)، والدرس المستفاد: أن النبي (ﷺ) داعية قبل أن يكون قائدًا سياسيًّا أو عسكريًّا، وهو صاحب رسالة، شاء من شاء وأبى من أبى، فلتقبل قريش بالصلح والتعايش على هذا الشرط، أو يستمروا في الحرب التي أنهكتهم وأضرت بهم، أما هو (ﷺ) فثابتٌ على موقفه لا يساوم عليه أو يداهن فيه.

وعندما أوفد رسولُ الله (ﷺ) عثمانَ بن عفان (رضي الله عنه) إلى قريش، وأشيع بأنه قد قُتل، انتفض رسول الله (ﷺ)، وطلب البيعة على الموت وعدم الفرار ثأرًا لمقتل عثمان، وقال: **(لا نبرح حتى نناجزَ القوم)**(٣)، فما كان رسول الله (ﷺ) ليفرط بدم عثمان، وما كان ليقبل بسِلمٍ يقوم على الاستسلام والضعف والتفريط في الحقوق، وكان لهذا الثبات والإصرار والتمسك بالحق عظيم الأثر في نفوس المشركين، فقد أسرعوا بإرسال عثمان، وجدُّوا في طلب الصلح.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٥٦/٣، ٢٥٧.

(٢) ذكره ابن أبي شيبة في مصنفه ٤١١/٢٠ ح رقم ٣٨٠٠٧.

(٣) سيرة ابن هشام ٢٦٢/٣.

المطلب الخامس
عبقرية التخطيط والتفاوض

لا يخفى أن التعايش هو انتقال من حالة الحرب والصراع إلى حالة السلم ووقف القتال، وهو عملية تسبقها مفاوضات وتحالفات، لا يصلح لها إلا من اتسم بالحنكة السياسية، بحيث تكون قراراته ضمن استراتيجية واضحة الأهداف مدروسة الخُطى، وطالما كان الهدف واضحًا، فلا مانع من المرونة التي تجعله لا يضيع فرصة لتحقيق الهدف، ويقصد بالمرونة هنا: ((القدرة على تقليب الأمور، واستعراض الحلول الكثيرة، والتخلص من المآزق والمزالق))(١).

لقد ظهرت هذه العبقرية واضحة في تصرفات النبي (ﷺ) ومحاولاته لتجنب الصدام، ذلك أن النبي (ﷺ) ((كان يحرص على الاستبقاء على حياة قريش ويأمل إسلامهم وإفادة الدعوة منهم، فالناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وقريش من أكثر العرب فصاحةً وذكاءً وخبرةً ومكانة، واستبقاؤهم للإسلام فيه خيرٌ عظيم للدولة والدعوة كما برهنت الأيام. ولما رأى رسول الله (ﷺ) عناد قريش، بيَّن لهم بكل الطرق أنه لا يريد حرب أحد، وإنما يريد زيارة البيت الحرام وتعظيمه، والحق أن المسلمين كسبوا الموقف سياسيًّا، سواء دخلوا مكة وتحدثت العرب عن ذلك، أو لم يدخلوا فتحدثت العرب عن صدّ قريش لمن قصدوا تعظيم البيت العتيق، بعد أن كانت قريش تدَّعي أن المسلمين لا يحترمون المقدسات. وقد سعى الرسول (ﷺ) لبيان موقفه أمام الناس جميعًا، فأرسل رسله تترى إلى قريش يعلنون مقصدهم، وأرسلت قريش

(١) التحالف السياسي في الإسلام: منير محمد الغضبان، ص ٤٩، مكتبة المنـــار، الأردن، ط. الأولى ١٤٠٢هـــ/١٩٨٢م.

عددًا من الرسل للتفاوض))[1]، واستطاع رسول الله (ﷺ) من خلال هذه السفارات أن يغير مواقف بعض زعماء قريش، وأن يضغط على البعض الآخر للعدول عن فكرة الحرب إلى فكرة التفاوض، ((ومدَّ يده إلى قريش مظهرًا منتهى الحنكة السياسية والنظر البعيد، مع منتهى المرونة والتسامح، وكسب (ﷺ) الرأي العام حينما اتجه إلى مكة المكرمة وقد ساق الهدي ليثبت للعرب كافة تعظيمه للبيت الحرام، فجعل قريش قبالة خيارين لا ثالث لهما: إما أن تمنعهم من دخول مكة، وإما أن تسمح لهم بدخولها، وفي كلا الخيارين سيكسب (ﷺ) الموقف، فإن منعت قريش، كشف موقفها العدائي، مثبتًا أن جو الحرب ليس من صنعه، وإن دخلها فهذا انتصار سياسي إعلامي كبير، وبهذا جعل النبي (ﷺ) قريشًا في أحرج موقف، فهي بين الرفض والقبول سيَّان))[2]، وتلك هي عبقرية التخطيط التي مهدت للصلح بعد مفاوضات دقيقة، أظهرت عبقرية النبي (ﷺ) في التفاوض على النحو التالي:

بعد سلسلة من المراسلات، جاء سهيل بن عمرو، وجلس النبي (ﷺ) معه للتفاوض، فأبدى من المرونة ما أذهل الجميع، وفي ذات الوقت انتزع من المكاسب ما أكدته الأحداث بعد ذلك، فلئن كان النبي (ﷺ) قد قَبِل الرجوع عامه هذا، فقد انتزع حقًّا وهو الإتيان في العام الذي يليه ومعه المسلمون لأداء العمرة آمنين مطمئنين، وحقق مكسبًا عظيمًا وهو وقف القتال لعشر سنوات يأمن فيها الناس، ويتفرغ النبي (ﷺ) لجبهات أخرى كانت تتربص به وتناصبه العداء، ودعا رسول الله (ﷺ) عليًّا ليكتب الكتاب، فأملى عليه: **(بسم الله الرحمن**

(١) راجع: السيرة النبوية الصحيحة: د. أكرم ضياء العمري ٤٣٨/٢ وما بعدها، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط. السادسة ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

(٢) الإسلام والتفاهم بين الشعوب: د. شوقي أبو خليل، ص ٥٢، ٥٣.

الرحيم)، فقال سهيل: أما الرحمن فوالله لا ندري ما هو، ولكن اكتب: (باسمك اللهم)، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي (ﷺ): **اكتب باسمك اللهم**، ثم أملى: **هذا ما صالح عليه محمد رسول الله**، فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي (ﷺ): **والله إني لرسول الله وإن كذبتموني**، وأمر عليًّا أن يكتب: محمد بن عبد الله، ويمحو لفظ رسول الله، فقال علي: لا والله لا أمحوها، فقال رسول الله(ﷺ) : **أرِني مكانَها**، فأراه مكانها، فمحاها، ثم تمت كتابة الصحيفة (١).

وهكذا تجاوز رسول الله (ﷺ) الأمور الشكلية ليحقق هدفه المرسوم، الذي كان واضحًا في ذهنه، وأثبتت الأيام بعد ذلك بُعد نظره ودقة تقديراته، واستطاع بعبقريته في التفاوض أن يرسي عدة مبادئ من أهمها:

١- **ترسيخ مبدأ التفاوض:** فلا غنى لأي إنسان عاقل عن التفاوض، ما دام يعيش مع بني الإنسان، ويسعى للتفاهم والتقارب معهم، لذلك سعى رسول الله (ﷺ) منذ خروجه للحديبية إلى فتح قنوات عدة، لطرح قضية التفاوض والتفاهم مع قريش بدلاً من الدخول في حرب دامية تأكل الأخضر واليابس، لمجرد حمية جاهلية ليست لها مسكة من عقلٍ ولا حكمة!! ونجح النبي (ﷺ) في تقديم نموذج للعرب قاطبةً في كيفية التفاهم الحضاري ومدى إمكانية التعايش بين الفرقاء وجدوى ذلك، وهو ما يعبر عنه في الواقع السياسي المعاصر بـــ "الدبلوماسية"، ويقصد بها: فن التفاوض، فهي الوسيلة التي لها المقدرة على تنفيذ سياسات الدولة وتحقيق أهدافها الخارجية بأساليب التفاهم والتفاوض والحوار، وتصل أحيانًا إلى الضغط والمساومة، دون اللجوء إلى العنف أو

(١) صحيح البخاري ٢/٩٧٤ ح رقم ٢٥٨١ (مرجع سابق)، وغيره.

استخدام أساليب القتال(١)، وهو ما فعله رسول الله (ﷺ) في صلح الحديبية، فقد أرسى ثقافة الحوار والتفاوض المباشر بالوسائل الدبلوماسية، واعتمدها سبيلاً لفض المنازعات وتسوية الخلافات.

٢- **مراعاة المقاصد الكلية وتغليب المصلحة العليا:** فالمتأمل في بنود الصلح يجدها غير متكافئة، غير أن النبي (ﷺ) أقرَّها مراعاةً للمقاصد الكلية، وتغليبًا للمصالح الحقيقة والجوهرية والمستقبلية على بعض الاعتبارات التي يتمسك بها بعض الناس، فقبِل من الشروط ما قد يُظن لأول وهلة أن فيه إجحافًا بالمسلمين، أو رضا بالدنية، ورضي أن تحذف البسملة المعهودة، ويُكتب بدلاً منها: (باسمك اللهم)، وأن يُمحى وصف الرسالة، ويُكتفى باسم محمد بن عبد الله، ((وإنما وافقهم في هذه الأمور للمصلحة المهمة الحاصلة بالصلح، مع أنه لا مفسدة في هذه الأمور، أما البسملة وباسمك اللهم فمعناهما واحد، وكذا قوله: محمد بن عبد الله هو أيضا رسول الله (ﷺ)، وليس في ترك وصف الله (ﷻ) في هذا الموضع بالرحمن الرحيم ما ينفي ذلك، ولا في ترك وصفه أيضا (ﷺ) هنا بالرسالة ما ينفيها، فلا مفسدة فيما طلبوه، وإنما كانت المفسدة تكون لو طلبوا أن يكتب ما لا يحل من تعظيم آلهتهم ونحو ذلك))(٢)، وقد يضاف إلى ذلك أيضًا: أنه يحسن استخدام العبارات المشتركة بين الطرفين والتي لا غضاضة فيها على المسلمين، كما غير رسول الله (ﷺ) تلك العبارات، مع الحرص على تحقيق المعنى المراد، فإن رسول الله (ﷺ) أكد اتصافه بالرسالة ولو لم يُدوَّن ذلك في الكتاب، إشارة إلى أن ما ذهب إليه لا يغير من

(١) راجع بتوسع: صلح الحديبية وأبعاده السياسية المعاصرة: د. عبد الحكيم الفيتوري، ص ٣١ وما بعدها.

(٢) شرح صحيح مسلم للإمام النووي ١٣٩/١٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط. الثانية ١٣٢٩هـ.

حقيقة الأمر شيئًا(١)، وقد علق الإمام النووي على حديث صلح الحديبية بقوله: ((وفيه: أن للإمام أن يعقد الصلح على ما رآه مصلحة للمسلمين، وإن كان لا يظهر ذلك لبعض الناس في بادئ الأمر، وفيه احتمال المفسدة اليسيرة لدفع أعظم منها، أو لتحصيل مصلحة أعظم منها إذا لم يمكن ذلك إلا بذلك))(٢)، ومن هذه المقاصد الكلية والمصالح الدعوية التي حققها المسلمون بالصلح ما يلي:

(أ) الحصول على اعتراف من دولة قريش الكبرى حينئذ بالدولة الإسلامية، مقابل أن يرجع المسلمون هذا العام ويأتوا العام المقبل.

(ب) اقتناع قريش بعدم جدوى مقاتلة المسلمين، ورضاها بالتعايش السلمي، مقابل التحلل من الإحرام قبل تمام العمرة، ونحر الهدي، وحلق الرؤوس خارج المسجد الحرام.

(ج) تحييد قريش والانفراد بمعاقل اليهود، مقابل حصانة دماء وأموال رعايا الدولة القرشية(٣).

وأما البند الذي تعهد فيه رسول الله بردّ من جاءه مسلمًا هاربًا من قريش، وعدم تعهد قريش برد من جاءها من المسلمين مرتدًّا، فقد أجاب عنه رسول الله (ﷺ) بما طمأن قلوب المسلمين قائلاً: **(من ذهب منا إليهم** [أي مرتدًّا] **فأبعده الله، ومن جاء منهم** [أي مسلمًا] **سيجعل الله له فرجًا ومخرجا)**(٤).

---

(١) فقه الدعوة في صلح الحديبية: د. سليمان العيد، ص ١٣١، ١٣٢.

(٢) شرح صحيح مسلم للإمام النووي ١٣٥/١٢.

(٣) صلح الحديبية وأبعاده السياسية المعاصرة: د. عبد الحكيم الفيتوري، ص ٨٠، ٨١ باختصار.

(٤) رواه مسلم في صحيحه: كتاب الجهاد والسير – باب صلح الحديبية في الحديبية ١٤١١/٣ ح رقم ١٧٨٤.

المطلب السادس
الوفاء بالعهود واحترام المواثيق

ويقصد بالوفاء بالعهد هنا: التقيد بما يفرضه شرف الكلمة من الوفاء بالالتزامات التي يقطعها المسلم على نفسه، لا سيما إذا كان قائدًا أو حاكمًا، مهما ترتب على هذا الوفاء من خسائر وآلام تصيب الموفي بالعهد(١).

وتعظيمًا لشأن العهد، فقد اعتبره القرآن عقدًا وميثاقًا، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقال أيضًا: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكۡمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١] والميثاق: هو العهد المؤكد(٢).

والوفاء بالعهود واحترام المواثيق هو مبدأ إسلامي، وأداة من أدوات ترسيخ التعايش والسلم الإنساني، ((فكما وضع الإسلام للحرب أسس القواعد العادلة والموازين الإنسانية الفريدة، فقد وضع في حالة السلم نظامًا للعلاقات التي تضمن رعاية السلم العام، وتتيح للناس جميعًا أن يحيوا في حرية وأمن واطمئنان، ومن أبرز قواعد النظام الإسلامي في هذا: الوفاء بالعهود والمواثيق، إذ يحرص الإسلام في هذا على الالتزام الكامل والإخلاص فيها، وحسن النية في رعايتها، ويحذر من نقض العهد بأي صورة من الصور))(٣)، ولا يظن ظانٌّ أن الوفاء بالعهود واحترام المواثيق هو مظهر ضعف، ((فالعهد في ذاته

---

(١) راجع بتصرف: صلح الحديبية: محمد أحمد باشميل، ص ٢٨٢.

(٢) تفسير السعدي، ص ١٣٦، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. الأولى ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م. تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق.

(٣) أخلاقنا الاجتماعية: د: مصطفى السباعي، ص ١٤٧، المكتب الإسلامي، بيروت، بدون تاريخ.

قوة، والتزامه قوة؛ لأنه يأمن فيه جانب الاعتداء، وأمن الاعتداء يثبت دعائم السلام، والسلام تطمئن فيه الشعوب وتستقر))(١)، ومن أبجديات العلاقات الدولية: ((أن المعاهدات لا تستمد قوتها من نصوصها، بل من عزيمة عاقديها على الوفاء))(٢)، والويل للبشرية إذا تحولت المعاهدات والاتفاقيات الدولية إلى مجرد حبر على ورق، تحركها المصلحة، وتنقض إذا انتفت المصلحة، فذلك مؤذِنٌ بالفساد والخراب، وانعدام الأمن والاستقرار، واستحالة التعايش، لذلك نهى الإسلام عن الغدر بكل صوره.

وفي صلح الحديبية، يتجلى وفاء النبي (ﷺ) للمشركين بما عاقدهم وعاهدهم عليه، لا سيما ((في مثل تلك الوقائع التي كان فيها الوفاء بالعهد شاقًّا على النفوس البشرية، صعبًا عليها، وذلك لتصادمه مع عواطف المسلمين القلبية ومشاعرهم الوجدانية، ولكن المسألة في هذا الأمر لا يستجاب فيها لنداء العاطفة، بل يلبى فيها نداء المبدأ الذي اتسمت به شرعة الإسلام، وهو الوفاء بالعهد، وإن تصادم مع ما ترغب فيه النفوس، وتميل إليه المشاعر))(٣)، وقد ظهر وفاء النبي (ﷺ) في صلح الحديبية في مواقف كثيرة منها:

– **ردّ أبي جندل وأبي بصير:** فقد تضمنت بنود الصلح: أن من جاء إلى محمد بغير إذن وليه ردَّه محمد، وبينما الكتاب يكتب جاء أول اختبار للوفاء، إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يَرْسُفُ في قيوده، فارًّا من أذى قومه، حتى رمى

(١) الوحدة الإسلامية: الشيخ محمد أبو زهرة، ص ٣٢٠، دار الرائد العربي، بيروت، بدون تاريخ.

(٢) العلاقات الدولية في الإسلام: الشيخ محمد أبو زهرة، ص ٤٢.

(٣) منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية: سليم عبد الله حجـــازي، ص ٣٢٧، ٣٢٨، دار المنارة، جدة، ط. الأولى ١٤٠٦هـــ/١٩٨٦م.

بنفسه بين ظهور المسلمين، فقال سهيل: هذا أول ما أقاضيك عليه أن تردَّه، فقال النبي (ﷺ): **إنا لم نقضِ الكتاب بعد**، قال: فوالله إذًا لا أقاضيك على شيءٍ أبدًا، قال النبي (ﷺ): **فأجِزْهُ لي**، قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: **بلى فافعل**، قال: ما أنا بفاعل، وقد ضرب سهيل أبا جندل في وجهه، وأخذ بتلابيبه وجرَّه ليرده إلى المشركين، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أأردُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فقال الرسول (ﷺ): **يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، فلا نغدر بهم.**

لقد كان النبي (ﷺ) يتألم لألم أبي جندل، وقد ظهر ذلك في محاولاته مع سهيل أن يستثني أبا جندل، ولكنها قيمة الوفاء التي أعلاها رسول الله (ﷺ) إلى أقصى مدى، حتى تعلم الدنيا كلها أن الوفاء بالعهود والمواثيق لم يكن كلامًا نظريًّا أو شعارات جوفاء، ولكنه كان سلوكًا عمليًّا في حياة المسلمين.

ولما رجع رسول الله إلى المدينة واطمأن بها، انفلت رجلٌ من المسلمين، ممن كان يُعذَّب من مكة، وهو أبو بصير، فأرسلوا في طلبه رجلين، وقالوا للنبي (ﷺ): العهد الذي جعلتَ لنا، فقال له النبي (ﷺ) مثل ما قال لأبي جندل، ودفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحُلَيفة، وهناك استطاع أن يتخلص منهما، وجاء إلى رسول الله (ﷺ) يقول: يا نبيَّ الله، قد والله أوفى اللهُ ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، قال رسول الله (ﷺ): **(وَيْلُ أُمِّهِ، مِسعَرَ حَرْبٍ، لو كان له أحد)**، فلما سمع ذلك عرف أنه لا مقام له في المدينة، فخرج حتى أتى ساحلَ البحر، ولحق به أبو جندل وآخرون، حتى اجتمع إليه قريب من سبعين مسلمًا، فوالله ما يسمعون بعيرٍ خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوها، فأرسلت قريش إلى النبي (ﷺ) تناشده اللهَ والرحم لما أرسل، فمن أتاه فهو آمِن،

فأرسل النبي (ﷺ) إليهم، فقدموا عليه المدينة(١)، وهكذا جعل الله (ﷻ) لهم فرجًا ومخرجًا، ولم ينقض النبي (ﷺ) عهده، ((وفي موقف أبي بصير ما يشير إلى مبدأ (قد يسع الفرد ما لا يسع الجماعة) فقد ألحق أبو بصير وجماعته الضرر بالمشركين، في وقتٍ كانت فيه دولة الإسلام لا تستطيع ذلك وفاءً بالصلح، لكن أبا بصير وأصحابه خارج سلطة الدولة – ولو في ظاهر الحال))(٢).

– **وفاء النبي (ﷺ) بالخروج من مكة بعد عمرة القضاء:** فقد كان من بنود الصلح: أن يرجع النبي (ﷺ) ولا يعتمر هذا العام، وقد التزم النبي (ﷺ) بتنفيذ هذا البند مع مشقته على النفوس، ورجع المسلمون دون أداء العمرة التي خرجوا لأجلها، وبحسب الاتفاق جاؤوا في العام المقبل لذلك، ودخلوا مكة، وبقوا فيها ثلاثة أيام، والمشركون يرقبون الوضع، فلما كان اليوم الثالث قالوا لعليّ: هذا آخر يومٍ من شرط صاحبك، فأمره أن يخرج، فأخبره بذلك فقال: **نعم**، فخرج(٣)، ولا يعني سؤال المشركين لعليّ الخروج أن المسلمين تأخروا عن الوقت المتفق عليه، وقد بيَّن ذلك الإمام النووي فقال: ((فإن قيل: كيف أحوجهم إلى أن يطلبوا منهم الخروج ويقوموا بالشرط؟ فالجواب: أن هذا الطلب كان قبل انقضاء الأيام الثلاثة بيسير، وكان عزم النبي (ﷺ) وأصحابه على الارتحال عند انقضاء الثلاثة، فاحتاط الكفار لأنفسهم، وطلبوا الارتحال قبل انقضاء الثلاثة بيسير، فخرجوا عند انقضائها وفاءً للشرط))(٤)، ومما لا شك

(١) صحيح البخاري ١٩٦/٣، ١٩٧ (مرجع سابق)، وسيرة ابن هشام ٢٦٤/٣ وما بعدها.

(٢) السيرة النبوية الصحيحة: د. أكرم ضياء العمري ٤٥٢/٢.

(٣) رواه مسلم في صحيحه: كتاب الجهاد والسير – باب صلح الحديبية في الحديبية ١٤٠٩/٣ ح رقم ١٧٨٣.

(٤) شرح صحيح مسلم للإمام النووي ١٣٩/١٢.

فيه أن هذا الوفاء من النبي (ﷺ) والمسلمين قد ترك أثرًا طيبًا في نفوس المشركين، جعلهم يعرفون عظمة الإسلام والتزام المسلمين واحترامهم للكلمة التي كتبت والتي لم تكتب على السواء.

- **التزام النبي (ﷺ) بالسلمية التي نص عليها صلح الحديبية:** فقد كان من بنود الصلح: أن توضع الحرب بين الطرفين عشر سنين، وأن من أحب أن يدخل في عقد أيٍّ من الفريقين وعهده دخل فيه، وتعتبر القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين جزءًا من ذلك الفريق، فأي عدوان تتعرض له أي من هذه القبائل يعتبر عدوانًا على ذلك الفريق، فدخلت قبيلة خزاعة في عهد محمد (ﷺ)، ودخل بنو بكر في عهد قريش. وظل النبي (ﷺ) وفيًّا لتلك البنود ملتزمًا بها دون إخلال بحرفٍ واحدٍ منها، ولما ذَكر له بعض المسلمين أنهم على نية الغدر به، وعلى أهبة أن يقاتلوه، كان شعاره (ﷺ): **(نفي بعهدهم ونستعين اللهَ عليهم)**(١)، وظل الأمر هكذا إلى أن نقضت قريش العهد بمساعدتها بني بكر في الاعتداء على خزاعة، وهم حلفاء النبي (ﷺ)، فاعتبر ذلك نقضًا للعهد، وكان من ثمرة ذلك: فتح مكة.

وبعد: فهذه أسس التعايش التي تضمنها صلح الحديبية، فأعظِم به من صلح، وأعظِم بها من أسس، ذلك أن هذا الصلح كان تجربة رائدة مهدت للتعايش داخل الجزيرة العربية، وأما عن الأسس فهي – برأيي – تشكل خارطة طريق للتعايش الإنساني الجاد.

(١) رواه مسلم في صحيحه: كتاب الجهاد والسير – باب الوفاء بالعهد ٣/١٤١٤ ح رقم ١٧٨٧.

المبحث الثالث
النتائج والثمرات

لقد كان صلح الحديبية بمثابة نقطة تحول كبرى في مسيرة دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة، ذلك أن النبي (ﷺ) قد وضع من خلاله الأسس والقواعد لمرحلة جديدة يسودها الهدوء والاستقرار والتعايش السلمي في أرجاء الجزيرة العربية، والحق أن هذه الأسس قد آتت أكلها وأينعت ثمراتها، والمتأمل في غزوة الحديبية يجد ((أن ما حدث قبل وحتى عقد هذا الصلح التاريخي لم يكن معركة حربية بالمعنى التقليدي المتعارف عليه في القاموس العسكري، فلم تنشب هناك معارك دامية في بطاح الحديبية بين المسلمين وقريش، كالتي نشبت في بطاح بدر وشعاب أحد ومشارف الخندق ووديان خيبر ومرتفعاتها، ولكن نتائج صلح الحديبية الإيجابية لم تكن أقل من نتائج أية معركة من تلك المعارك الدامية، بل إن هذا الصلح قد حقق للمسلمين وللدعوة الإسلامية من المكاسب – على كل المستويات السياسية والروحية والمعنوية والعسكرية – ما لم تحققه أية معركة خاضها النبي (ﷺ) وأصحابه بالسيف والرمح والنبل، حتى وصفه القرآن الكريم بـــ "الفتح المبين"، وهو وصفٌ قد انفرد به صلح الحديبية))(١)، ففي طريق عودة النبي (ﷺ) وأصحابه من الحديبية إلى المدينة نزلت سورة الفتح، وفي مطلعها إشادة بهذا الصلح التاريخي، وإشارة إلى مكاسبه العظيمة، قال تعالى: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾ [الفتح: ١]، وعامة المفسرين والمحدثين على أن سورة الفتح نزلت في صلح الحديبية، وأن المراد بالفتح في مطلع هذه

(١) صلح الحديبية: محمد أحمد باشميل، ص ١٢، ١٣ باختصار.

السورة هو صلح الحديبية(١)، ولما قرأها رسول الله (ﷺ) قال رجل: يا رسول الله، أَفَتحٌ هو؟ قال: **(نعم، والذي نفسي بيده إنه لفتح)**(٢)، وقد وصفه جمعٌ من الصحابة بأنه الفتح، وأنه إذا أُطلق لفظ الفتح فإنما يعني يوم الحديبية، قال البراء بن عازب (رضي الله عنه): (تعُدُّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية)(٣)، وذكر نحو ذلك عبدالله بن مسعود وجابر بن عبد الله، وغيرهما، وروي عن أبي بكر (رضي الله عنه) قوله: (ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد (ﷺ) وربه، والعباد يعجلون، والله تعالى لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد)(٤).

والبحث لا يتسع للإسهاب في ذكر مكاسب هذا الفتح والتفصيل في نتائجه، ولذا سأذكر بعض النتائج والثمرات، مقتصرًا على ما له علاقة بموضوع "التعايش" على النحو التالي:

(١) راجع: صحيح البخاري ١٥٣٠/٤، وصحيح مسلم ١٤١٣/٣، وغيرهما.

(٢) رواه أبو داود في سننه: كتاب الجهاد – باب فيمن أسهم له سهمًا ٢٨/٣ ح رقم ٢٧٣٨، والحاكم في "المستدرك" ١٣٢/٢، وقال: هذا حديث كبير صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٣) صحيح البخاري ١٥٢٥/٤.

(٤) مغازي الواقدي ٦١٠/٢، عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ. تحقيق: مارسدن جونس، والسيرة الحلبية ٧٢١/٢.

المطلب الأول
الاعتراف بدولة الإسلام في المدينة

كان المسلمون في غزوة بدر وأحد والخندق في موقف المدافعين عن أنفسهم، وجاءت الحديبية، وخرج المسلمون قاصدين دخول مكة، وظهروا أمام قريش وغيرها من قبائل العرب بمظهر القوة، ففزعت قريش، وحشدت الجموع لقتالهم ومنعهم من دخول مكة عنوة، ثم رضخت بعد ذلك للصلح، حين أرسلت سهيل بن عمرو وقالت له: ائت محمدًا فصالحه(١)، وما من شك في أن طلب قريش للصلح والتفاوض مع النبي (ﷺ) وهو على حدود مكة يعد اعترافًا منهم بالمسلمين، وهم الذين كانوا ((يعتبرونهم شرذمة لا كيان لها، لا تنظر إليهم إلا كما تنظر إلى الصعاليك من قطاع الطرق والخارجين على القانون الذين يجب إخضاعهم أو التخلص منهم، وما كانت قريش تفكر أنها في يومٍ من الأيام ستقعد معهم على مائدة واحدة لتفاوضهم الندّ للندّ، وتعترف بهم في معاهدة مسجلة كأمة لها كيانها، بل كدولة لها هيبتها ونفوذها، الأمر الذي ترفض قريش الاعتراف – رسميًّا – بشيء منه كل الرفض، حتى جاء يوم الحديبية، فاعترفت فيه للمسلمين بكل ذلك، ووقَّع مندوبها على وثيقة تاريخية دولية، تتضمن هذا الاعتراف. والهدنة لا تعقد إلا بين فئتين متكافئتين عسكريًّا وسياسيًّا على الأقل، فكأن النبي (ﷺ) بنجاحه في عقد هذا الصلح التاريخي مع قريش قد انتزع منها هذا الاعتراف انتزاعًا))(٢)، وقد تأكد هذا الاعتراف في طلبهم الهدنة ورغبتهم في وقف القتال، بل وتحديد ذلك بعشر سنوات، وفيه دلالة على شعور قريش بالتراجع أمام قوة المسلمين، وأنها باتت غير قادرة على مواجهتهم واستمرار

(١) سيرة ابن هشام ٢٦٣/٣.

(٢) راجع: صلح الحديبية: محمد أحمد باشميل، ص ٢٩٢، ٢٩٣ باختصار.

الحرب معهم، ومن ثم لجأت إلى مهادنتهم والتعامل معهم على أنهم دولة وكيان سياسي فرض وجوده في جزيرة العرب، ((وهو اعتراف رسمي موقع من قريش، بأن رسول الله (ﷺ) ومن معه قوة مستقلة متميزة، وصنو قريش زعيمة القبائل، وهذا يعني أيضًا – أمام كل قوى جزيرة العرب – أن قريشًا قد اعترفت رسميًّا بمن كانت تريد استئصاله، مما جعل القبائل العربية تعيد حساباتها))(١).

قيمة هذا الاعتراف وفوائده: ظهرت قيمة هذا الاعتراف وفوائده على النحو التالي:

١- **اجتناب سياسة الحروب الاستنزافية:** تلك السياسة التي أشار إليها رسول الله (ﷺ) بقوله: **(ويح قريش! قد أكلَتْها الحرب)**، ولاجتناب سياسة الحروب الاستنزافية، كان من الضروري السعي لتحقيق مبدأ الاعتراف المتبادل بكياني الدولتين من كلا الطرفين، فدولة قريش اعترفت بدولة الإسلام حين أبرمت معها صلح الحديبية؛ لأن المعاهدة عادة لا تكون إلا بين نِدَّيْن، وبالمقابل فقد اعترفت دولة الإسلام – اعترافًا وجوديًّا وليس شرعيًّا – بسيادة دولة قريش على تلك الحدود الجغرافية، وهذا الاعتراف المتبادل ضرورة دولية وعرفية يجب الالتزام بها، لما لها من فوائد ومصالح تتحقق للطرفين، ومن تلك الفوائد: وقف القتال، وتحقيق السلام، وتهيئة الأجواء للتعايش وبسط الأمن في ربوع البلاد(٢).

---

(١) صلح الحديبية "الفتح المبين": د. شوقي أبو خليل، ص ١٣٠، ١٣١، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، طبعة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

(٢) صلح الحديبية وأبعاده السياسية المعاصرة: د. عبد الحكيم الفيتوري، ص ٦٩، ٧٠ باختصار.

٢- **الاعتراف بحق المسلمين في ممارسة شعائر دينهم:** فقد جاء في بنود الصلح: السماح للمسلمين بالعودة في العام القابل لأداء العمرة وزيارة البيت الحرام، وجاء المسلمون بالفعل وأدوا عمرتهم، ومارسوا شعائرهم بطريقة تختلف عما تعارف عليه مشركو مكة وغيرهم من عرب الجزيرة، وهو ما يؤكد أن صلح الحديبية قد فرض واقعًا جديدًا، اقتضى ((اعتراف قريش بوجود دين جديد، له تصوراته ومفاهيمه التي تختلف تمامًا عن تصوراتهم ومفاهيمهم ومعتقداتهم، وبحق هذا الدين في ممارسة شعائره حول البيت، مع وجود أصنامهم وتماثيلهم فيه، وهذا الاعتراف يعني تراجع قريش وتخاذلها عن نصرة مبادئها العقدية، وتساهلها – نسبيًّا – في شؤون دينها العتيق المتوارث، وبمقدار هذا التراجع يكون تقدم المدّ الإسلامي، ورسوخ مبادئه وأفكاره، وإن هذا التراجع لهو أول النهاية الحتمية التي خطتها قريش في هذا الصلح لنفسها ولمستقبل آلهتها))(١).

٣- **تحييد جبهة قريش وتقوية الجبهة الإسلامية:** فقد نص الصلح على أن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه..، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن مع عقد رسول الله (ﷺ) وعهده، وهكذا أجازت الاتفاقية للطرفين التحالف مع القبائل العربية على قدم المساواة، وقد ظهر ذلك في مبادرة خزاعة للتحالف مع المسلمين علناً دون هيبة قريش(٢)، ((ولما كانت قريش هي زعيمة الوثنية وحامية حمى الحرم المقدس، فإن توابعها من القبائل العربية المنتشرة في الجزيرة رأت نفسها في حل من الانتماء لزعامتها والارتباط بمصيرها، وأن لها

(١) صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة: د. محمد فيض الله، ص ٢٩١، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط. الأولى ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

(٢) راجع: السيرة النبوية الصحيحة: د. أكرم ضياء العمري ٢/٤٥٠.

الحرية المطلقة في أن تختار المعسكر الذي تراه مناسبًا، دخولاً في دينه أو صداقة معه. وقد فتح ذلك المجال أمام المسلمين لكي ينشطوا وينتشروا في الآفاق لكسب مزيد من الأصدقاء والحلفاء والمنتمين إلى الدين الجديد، مستفيدين من جهة أخرى من فترة السلم التي أتاحتها شروط الحديبية))(١) الأمر الذي يؤكد اهتزاز الزعامة الأدبية التقليدية والتاريخية لقريش، وفي المقابل تقوية الجبهة الإسلامية بالتحالف مع قبيلة خزاعة وغيرها من القبائل العربية التي سارعت في تكوين علاقات ودية مع المسلمين.

وانكفأت قريش على نفسها، وتفرغ رسول الله (ﷺ) لمواجهة خطر اليهود وغيرهم من المتربصين بالمسلمين داخل الجزيرة العربية، ولذلك لم يلبث رسول الله (ﷺ) في المدينة إلا قليلاً بعد عودته من الحديبية حتى أمر أصحابه بالاستعداد للخروج شمالاً إلى خيبر، وبعدها توجهوا إلى بقية الجيوب في فدك ووادي القرى وتيماء وأخضعوها(٢).

(١) دراسات في السيرة: د. عماد الدين خليل، ص ٢٣٢، مؤسسة الرسالة، ودار النفـــائس، بيروت، ط. الثالثة عشر ١٤١٢هـــ/١٩٩١م.

(٢) للاطلاع على تفاصيل تلك الأحداث، راجع: سيرة ابن هشام ٢٧٥/٣ وما بعدها.

المطلب الثاني
حماية المستضعفين من المسلمين في مكة

لقد خرج النبي (ﷺ) إلى مكة قاصدًا العمرة وزيارة بيت الله الحرام، لكن قريشًا أبَتْ إلا أن تصده عن ذلك، وسلكت في سبيل ذلك كل وسائل التحدي والاستفزاز، وكان بالإمكان أن يتسبب ذلك في إشعال نار الحرب وإسالة الدماء على حدود الحرم، لولا تحلي النبي (ﷺ) بضبط النفس، وإصراره على تجنب الصدام المسلح، وذلك لأسباب كثيرة، من أهمها: حماية المستضعفين من المسلمين في مكة(١)، وقد أشار القرآن الكريم ((إلى أن من أسباب اتباع نبيه طريق الصلح بدلاً من الحرب: هو أن هناك مسلمين بين المشركين في مكة، لو سلك النبي (ﷺ) طريق الحرب فانتصر، لأبيد كثير من هؤلاء المسلمين المستضعفين على أيدي الجيش النبوي دونما علم منه، فيصيبهم من ذلك بلاءً عظيما، فقال تعالى: ﴿**هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ** [أي: محبوسًا بالحديبية] **وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ** [يقول: لو خرجوا من عند المشركين] **لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾ [الفتح: ٢٥] أي: لسلطناكم عليهم فاقتحمتم عليهم مكة بالسيف، ولكن الحكمة – لا تعلمونها – جعلنا القضية تسوَّى عن طريق الصلح بدلاً من

(١) المقصود: المستضعفون المسلمون من النساء والرجال الذين ظلوا يعيشون داخل المجتمع القرشي المشرك في مكة؛ لعد تمكنهم من الهجرة واللحاق بالمسلمين في المدينة، إما لكونهم من النساء، وإما لكونهم من الذين لا عصبية لهم في قريش تحميهم من الاضطهاد، كالموالي الذين استوطنوا مكة وهم ليسوا من أهلها. راجع: صلح الحديبية: باشميل، ص ١٩٩.

الحرب التي لو خضتموها لانتصرتم فيها على قريش، ومن هذه الحكمة: حماية المستضعفين المسلمين من معرة الجيش الإسلامي المنتصر الذي لا يمكنه التمييز ساعات الالتحام بين المسلم والمشرك))(١).

وعندما أرسل رسول الله (ﷺ) عثمان سفيرًا إلى قريش، أمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين، ونساء مؤمنات، فيبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله (ﷻ) مظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفي فيها أحد بالإيمان، فقام عثمان بزيارة هؤلاء المستضعفين المسلمين في مكة فردًا فردًا، وبشرهم بأن عهد التخلص من الظلم الوثني قد أزف، وأن اليوم الذي يكونون فيه أحرارًا لا يستخفون فيه بدينهم من أحدٍ بمكة لقريبٌ جدا(٢)، وقد حكى ذلك عثمان (رضي الله عنه) فقال: ثم كنتُ أدخل على قومٍ مؤمنين من رجال ونساء مستضعفين، فأقول: إن رسول الله (ﷺ) يبشركم بالفتح ويقول: **(أُظِلُّكُم حتى لا يستخفي بمكةَ الإيمان)** قال عثمان: فقد كنتُ أرى الرجل منهم والمرأة ينتحب حتى أظن أنه يموت فرحًا بما خبّرتُه، فيَسأل عن رسول الله (ﷺ) فيخفي المسألة، ويشتدُّ ذلك على أنفسهم، ويقولون: اقرأ على رسول الله منا السلام، إن الذي أنزله بالحديبية لقادرٌ أن يدخلَه بطن مكة(٣)، وهكذا كان يتحرك رسول الله (ﷺ) بخطوات مدروسة، ويفكر في عواقب ومآلات الأمور قبل اتخاذ أي قرار، وتلك هي مقومات القيادة الناجحة.

بين الحين والآخر تصدر إساءات للنبي محمد (ﷺ)، في الدنمارك وفرنسا وغيرهما، وتأتي هذه الإساءات من خلال رسوم كاريكاتيرية ونحو ذلك، ومن حق المسلمين، بل من واجبهم أن يغضبوا، وأن يهبوا لنصرة نبيهم والدفاع عنه

(١) صلح الحديبية: محمد أحمد باشميل، ص ٢٦٦، ٢٦٧.

(٢) الرحيق المختوم للمباركفوري، ص ٣٢٩، وصلح الحديبية لباشميل، ص ١٩٩.

(٣) مغازي الواقدي ٦٠١/٢.

ضد تلك الإساءات، لكن هذه الغضبة لا بد أن تكون منضبطة، حتى لا يتطور الأمر إلى تخريب وصدام لا تحمد عقباه، وأول المتضررين من ذلك هم المسلمون المقيمون في تلك الدول، ومعلوم أنهم أقلية في تلك البلاد.

قبل عامين أو أكثر شهدت فرنسا نشر صور ورسوم مسيئة للنبي (ﷺ)، وجاء في سلسلة تغريدات على "تويتر" للشيخ/ علي بن مختار الرملي ما نصه: ((في فرنسا خاصة، وفي أوروبا عامة؛ ارتفعت أصوات كثيرة، وعقدت مؤتمرات للتحذير من: (أسلمَة أوروبا)، وذكروا أن الدين الإسلامي أكثر الأديان انتشارًا فيها، والناس مقبلون عليه هناك بأنواعهم، مما أثار غضب العلمانيين واليهود والنصارى، ولم يتمكن (رئيس فرنسا) من محاربة دعوة الإسلام والوقوف في وجه أسلمة أوروبا مع وجود قوانين الحريات عنده، فاتجه إلى تهييج مشاعر المسلمين واستفزازهم بنيهم محمد (ﷺ)، وبالطعن في الإسلام؛ كي يقوموا بردود فعل عشوائية، كالقتل والتفجير والتخريب، فيجد بذلك فرصة لوضع القوانين وإعطاء الأوامر التي تساعده على حرب دعوة الإسلام والوقوف في وجه أسلمة أوروبا، فيجب علينا أن نغلق عليه الطريق، فلا ننجرّ خلف العواطف فنمكنه من تحقيق أهدافه، فلا نتجه إلى القتل والتخريب والتفجير؛ بل ننصر ديننا بالتمسك به تعلمًا وتعليمًا، وننصر نبينا باتباع سنته (ﷺ) حتى تستمر مسيرة الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة))(١).

فكم من تصرفات هوجاء وسلوكيات رعناء قوضت فرص التعايش السلمي، وهددت مسيرة الدعوة، وأضرت كثيرًا بالأقليات المسلمة، وأعطت المبرر للحكومات الغربية المتعصبة للتضييق عليهم والتنكيل بهم، فلننتبه!

---

(١) سلسلة تغريدات على تويتر بتاريخ ٢٤ أكتوبر ٢٠٢٠م للشيخ علي بن مختار آل علي الرملي. تاريخ الزيارة: ٢٠٢٣/٤/١٦م. رابط التغريدات:
https://twitter.com/alqayim/status/١٣١٩٩٤٦٩٤٠٤٤٩٢٥١٣٢٨?lang=ar-x-fm.

المطلب الثالث
نشر الأمن وتحقيق السلم المجتمعي في الجزيرة العربية

لقد وضع الإمام الماوردي (رحمه الله) قواعدَ صلاح الدنيا وانتظام عمرانها، وجعل الأمن العام هو القاعدة الرابعة فقال: ((وأما القاعدة الرابعة: فهي أمنٌ عام تطمئن إليه النفوس، وتتيسَّر فيه الهمم، ويسكن إليه البريء، ويأنس به الضعيف، فليس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة، وقد قال بعض الحكماء: الأمن أهنأُ عيش، والعدل أقوى جيش؛ لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفهم، ويكفُّهم عن أسباب الموادّ التي بها قِوام أَوَدهم، وانتظام جملتهم))(١)، ولذلك كان التعايش والسلم وجهان لعملة واحدة، فالتعايش الذي لا ينتج سلمًا وسلامًا، ولا يثمر أمنًا وأمانًا، هو تعايش دعائي ترويجي، لا يرى الناس منه سوى الشعارات الزائفة، والدعايات المضللة.

ويكفي الباحث المنصف أن يعقد مقارنة بين الإسلام وغيره من الأنظمة الأخرى، ليتأكد له ((رحابة صدر الإسلام واحتواؤه على مبادئ قويمة للتعايش السلمي العالمي لجميع الشعوب مهما اختلفت انتماءاتهم الدينية والطائفية والأيدلوجية والثقافية والعرقية، وأن الإسلام هو النظام العالمي الوحيد الذي احتوى على تشريعات يمكن أن يعيش العالم في ظلها في سلام ووئام ولو في شبر واحد من الأرض، يهودًا ونصارى ومسلمين، بل وملحدين، إذا رضخوا لتوجيهات الإسلام مع بقائهم على عقائدهم، دون أن يضيق الإسلام ذرعًا بأحدٍ منهم، وهذا ما لا وجود له في أي نظام على وجه الأرض))(٢)، والتاريخ خير شاهد، فقد عاش غير المسلمين في المجتمعات الإسلامية آمنين مطمئنين على

(١) أدب الدنيا والدين للإمام الماوردي، ص ١٥٧، دار اقرأ، بيروت، ط. الرابعة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م. شرح وتعليق: محمد كريم راجح، ومعنى (قِوام أَوَدهم): استقامة اعوجاجهم.

(٢) مبادئ التعايش السلمي: د. عبد العظيم المطعني، ص١.

أنفسهم وأهليهم وأموالهم وأعراضهم ومعتقداتهم، ومن تعرض منهم لعقوبة، فبسبب فعلته، لا بسبب عقيدته.

لقد فعل رسول الله (ﷺ) كل ما في وسعه لإتمام الصلح في الحديبية، وذلك لإنهاء حالة الحرب المفتوحة التي كانت تتزعمها قريش، وحتى ينعم الناس بالأمن والأمان، ونظرًا لما للأمن والسلم المجتمعي من أهمية بالغة، فقد جاء النص عليه في بنود الصلح على النحو التالي:

– **بند الهدنة ووقف الحرب:** فقد جاء النص على (وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس)، وقد أشار الإمام الزهري إلى ذلك حين قال: (فما فتح في الإسلام فتحٌ قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمِن الناس بعضهم بعضًا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة..)(١)، وأتيحت الفرصة للمسلمين أن يصلوا أرحامهم التي كانت مقطوعة بسبب الحرب بينهم وبين قريش، تلك الحرب التي شغلتهم واستهلكت قوتهم، فكان من ثمرات الصلح: أن يستريح المسلمون ولو لفترة وجيزة، ويلتقطوا أنفاسهم، ليكون ذلك عونًا لهم على مواصلة طريق الكفاح الطويل.

– **بند عمرة القضاء:** فقد نص الصلح على عودة المسلمين في العام القابل لأداء العمرة، فيدخلوا مكة ويقيموا بها ثلاثًا، معهم سلاح الراكب، السيوف في القُرُب، ولا يُتعرَّض لهم بأي نوعٍ من أنواع التعرض. قال الحاكم: تواترت الأخبار أنه (ﷺ) لما هلَّ ذو القعدة، أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم، وألا يتخلف منهم أحدٌ شهد الحديبية، فخرجوا إلا من استشهد، وخرج معه آخرون معتمرين، فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان(٢).

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٦٨/٣.

(٢) فتح الباري لابن حجر ٥٠٠/٧.

ودخل رسول الله (ﷺ) ومعه المسلمون يلبون، فطافوا وسعوا ونحروا وحلقوا، في مشهد مهيب، إذ يعود النبي (ﷺ) إلى مكة وقد خرج منها منذ سبع سنوات مستخفيًا ومطاردًا، والآن يعود ومعه أصحابه ملبِّين آمنين مطمئنين، وأما أهل مكة – الذين خرجوا قبل سبع سنوات يبحثون عن رسول الله (ﷺ) ليقتلوه – فقد خرجوا اليوم إلى جبال مكة وأوديتها يفسحون الطريق لرسول الله وأصحابه ليدخلوا مكة معتمرين، مكتفين بمراقبتهم وهم يؤدون شعائر العمرة دون خوف أو قلق، وهو مكسب آخر من مكاسب صلح الحديبية، حصل المسلمون بموجبه على حق زيارة البيت الحرام وممارسة شعائرهم وفق أحكام دينهم، دون مدافعة لقريش ولا دخول في حرب معها.

– **بند السماح بدخول القبائل الأخرى في الحلف:** فقد نص الصلح على أن من أراد من القبائل الأخرى أن يدخل إلى هذا الحلف منضمًّا إلى أحد الطرفين فله ذلك، ومعلوم أن طرفي الصلح هما المسلمون من جهة، وقريش من جهة أخرى، ولم يطلب رسول الله (ﷺ) هذا البند أو يوافق عليه بغرض التقوِّي على قريش ومقاتلتهم، ولكنه (ﷺ) أراد أن يوسع دائرة السلم، وذلك بالسماح للقبائل الأخرى بالانضمام إلى هذا الصلح التاريخي، وبالتالي يلتزم الجميع بالهدنة ووقف القتال، ويعم الأمن والسلام أرجاء الجزيرة العربية.

– **بند الكف عن الحرب الكلامية:** فقد جاء ضمن بنود الصلح: **(وعلى أن بيننا عَيْبة مكفوفة)**(١)، أي: أمرًا مطويًّا في صدور سليمة، وهو إشارة إلى ترك المؤاخذة بما تقدم بينهم من أسباب الحرب وغيرها، والمحافظة على العهد الذي وقع بينهم(٢)، وقيل: أراد بينهم موادعة، ومكافّة عن الحرب تجريان مجرى المودة التي تكون بين المتصافين الذين يثق بعضهم ببعض، وقال السهيلي: عَيبة

(١) رواه أبو داود في سننه: كتاب الجهاد – باب في صلح العدو ٣/٤١ ح رقم ٢٧٦٨، وابن أبي شيبة في مصنفه ٢٠/٤٠٠.

(٢) فتح الباري لابن حجر ٥/٣٤٣، ٣٤٤.

مكفوفة: أي صدور منطوية على ما فيها لا تبدي عداوة(١)، ((ومن المعلوم أنه عند وجود عداوة بين طائفتين، أن هذه الحال لا تخلو من أن يتحدث كل فريق عن الفريق المقابل بما من شأنه أن يكون عيبًا أو تهديدًا أو وعيدًا أو انتقادًا، وهذا يسمى في المصطلح المعاصر بـــ "الحرب الكلامية"، وهذا النوع من السلوك ربما لا يغني شيئًا إلا انشغالاً بالكلام والتصريحات، وهو مما يزيد من شدة العداوة بين الطرفين، وتوقف الحرب العسكرية بين الطرفين بعهد لا يستقيم إلا بتوقف الحرب الكلامية، حتى لا تكون سببًا في نقض العهد، وإثارة الحرب مرة أخرى))(٢)، وفي هذا إشارة إلى أن صلح الحديبية لم يكن مجرد اتفاقية عسكرية، وإنما كان اتفاقية إعلامية، فقد نص على هدنة إعلامية يتوقف بموجبها الجميع عن التلاسن الإعلامي وحرب الشائعات، ونحو ذلك من أشكال التراشق المتبادل التي يكون لها أسوأ الأثر على التعايش السلمي والاستقرار الاجتماعي.

– **بند النهي عن الإسلال والإغلال:** فقد جاء في بنود الصلح: **(وأنه لا إسلال ولا إغلال)**(٣)، يقطع الطريق بذلك على أي محاولة للغدر والخيانة بسلّ السيوف ونحو ذلك، ((والمراد: أن يأمن بعضهم من بعض في نفوسهم وأموالهم سرًّا وجهرًا))(٤)، والنص على ذلك يعد ضمانةً أكيدة لاستقرار حالة السلم والتعايش، والحفاظ على الأمن وصيانته من كافة المهددات.

---

(١) الروض الأنف لأبي القاسم السهيلي ٦٨/٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط. الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م. تحقيق: عمر عبد السلام تدمري.

(٢) فقه الدعوة في صلح الحديبية: د. سليمان العيد، ص ١٥٥، ١٥٦ باختصار.

(٣) رواه أبو داود في سننه: كتاب الجهاد – باب في صلح العدو ٤١/٣ ح رقم ٢٧٦٨، وابن أبي شيبة في مصنفه ٤٠٠/٢٠.

(٤) فتح الباري لابن حجر ٣٤٤/٥.

المطلب الرابع
النهوض الدعوي والانتشار السريع للإسلام

يعد التعايش مع غير المسلمين فرصة ذهبية لإبراز محاسن الإسلام والدعوة إليه في أجواءٍ يسودها الهدوء والتقارب، ذلك ((أن تطبيق مبدأ التعايش يعكس صورة مشرفة عن الإسلام وأخلاقه وجمالياته، وهذا يقود الناس إليه طواعية))(١)، ومما يساعد على ذلك: طبيعة الإسلام نفسه، ذلك أن لديه ((قدرة على الانفتاح تتجاوز كل عائق أو حاجز، وتتمثل في التركيز على الإسلام، وليس على جنس الداخلين فيه، مع قبول غير المسلمين في ساحة المناظرة والحوار، وميدان الأخذ والعطاء، بعيدًا عن الزمان والمكان، وما قد يترتب عليهما من نزعات قبلية ونعرات إقليمية، في استفادة من كل تنوع وتعدد، وفي حل جذري لإشكالية الذات والآخر، وتتمثل كذلك في الاستقرار الناشئ عن التعايش والتساكن في ميلٍ للتسامح وجنوحٍ للسلم))(٢)، وهو ما يعني أن الإسلام هو المستفيد الأكبر من التعايش، فهو يتيح الفرصة للتقارب مع غير المسلمين، وإطلاعهم على عظمة الإسلام وسماحة تشريعاته وسمو أخلاقه ورقي حضارته، ولو اطلع غير المسلمين على جوانب العظمة في الإسلام لغيروا كثيرًا من أفكارهم وتصوراتهم عنه، شريطة أن يلتزم المسلمون بتعاليم دينهم، وأن تكون دعوتهم إليه بحالهم قبل مقالهم، ولذلك كان إبراز محاسن الإسلام وإظهار عظمته والدعوة إليه من أهم أهداف التعايش.

---

(١) السنة النبوية ودورها في تأسيس وترسيخ ثقافة التعايش في المجتمعات: عبد الخالق مهدي الهاتف، ص ١٥١، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة سنار، السودان، سنة ٢٠١٨م.

(٢) مفهوم التعايش في الإسلام: د. عباس الجراري، ٤٩.

لقد جاء صلح الحديبية ليؤكد هذه الحقيقة، من خلال ما سجله جمهرة كتاب السيرة والمؤرخين، فقد أجمعوا على أن أعظم مكاسب صلح الحديبية: تلك الهدنة التي أشاعت الأمن، وأتاحت اختلاط المسلمين بغيرهم، فشقت الدعوة طريقها إلى قلوب وعقول المشركين، وحدث الانتشار السريع للإسلام، وتضاعف عدد المسلمين في أقل من عامين، فكان فتحًا دعويًّا بحق. قال الإمام الزهري (رحمه الله): (فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمِن الناس بعضهم بعضًا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكلَّم أحدٌ بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، ولقد دخل تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر)(١)، وقد علق ابن هشام (رحمه الله) بقوله: (والدليل على قول الزهري أن رسول الله (ﷺ) خرج إلى الحديبية في ألفٍ وأربعمائة، في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف)(٢)، وعلق ابن القيم (رحمه الله) على هدنة الحديبية، فذكر أنها (كانت من أعظم الفتوح، فإن الناس أمِن بعضهم بعضًا، واختلط المسلمون بالكفار، وبادؤوهم بالدعوة وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرةً آمنين، وظهر من كان مختفيًا بالإسلام، ودخل فيه في مدة الهدنة مَن شاء الله أن يدخل، ولهذا سماه الله فتحًا مبينا)(٣)، وعلق ابن كثير (رحمه الله) على قول الله تعالى: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾ [الفتح: ١] فقال: (المراد به صلح الحديبية، فإنه حصل بسببه خيرٌ جزيل، وأمن الناس، واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان)(٤).

(١) سيرة ابن هشام ٣/٢٦٨، ٢٦٩.
(٢) المرجع السابق ٣/ ٢٦٩.
(٣) زاد المعاد لابن القيم ٣/٣١٠.
(٤) تفسير ابن كثير ٧/٣٢٨.

وهكذا غيَّر صلح الحديبية مجرى تاريخ الدعوة، وجعل الطريق آمنًا أمام جموع العرب للتعرف على هذا الدين، والاقتراب من المسلمين، الأمر الذي ساعد على تصحيح الصورة الذهنية الخاطئة عن الإسلام وأتباعه، وتبع ذلك الدخول في دين الله أفواجا. قال القسطلاني (رحمه الله) مصورًا حال المشركين قبل الصلح وبعده: (أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين، ولا تتظاهر عندهم أمور النبي (ﷺ) كما هي، ولا يخْلُون بمن يعلمهم بها مفصَّلة، فلما حصل صلح الحديبية اختلطوا بالمسلمين، وجاءوا إلى المدينة، وذهب المسلمون إلى مكة، وخلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحونه، وسمعوا منهم أحوال النبي (ﷺ) ومعجزاته الظاهرة، وأعلام نبوته المتظاهرة، وحسن سيرته، وجميل طريقته، وعاينوا بأنفسهم كثيرًا من ذلك، فمالَت نفوسُهم إلى الإيمان)(١)، ولم يمض على هذا الصلح عام كامل حتى دخل في الإسلام من العرب أكثر من الذين دخلوا فيه خلال خمس عشرة سنة – ومكة لم تفتح بعد–(٢).

ولما كان رسول الله (ﷺ) يرغب في إسلام أهل مكة، ويعلم أنه سيسلم بإسلامهم خلقٌ كثير، اختار طريق السلم والتعايش لتحقيق هذه الرغبة، ولو فعل غير ذلك ودخل مكة عنوة لكان الحقد والغضب والثأر هو الذي يطبع نفوس أهلها، ولحالَت هذه المشاعر بينهم وبين الدخول في الإسلام أو التفكير به، ((واتضح أن انقطاع قعقعة السلاح، وصليل السيوف، ونار الحرب، وحلول السلام بين المسلمين وقريش كان أجدى أثرًا في دعوة القرشيين إلى الإسلام،

(١) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للقسطلاني ١/٣٢٦، ٣٢٧، المكتبة التوفيقية، القاهرة، بدون تاريخ.

(٢) السيرة النبوية: أبو الحسن الندوي، ص ٣٢٠، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م. عناية: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري.

ومن ثم انقيادهم إليه، فالتعايش السلمي بين الطرفين الذي لم يأخذ إلا مدة قليلة بالمقارنة مع المدة الطويلة التي استغرقتها حالة الحرب والعداء أثمر عن إقبال – لا نظير له – على الإسلام من قِبَل المشركين القرشيين، إذ أتاح لهم جو السلام والأمن الاستماع بتؤدة إلى القرآن، كما نظروا بعين العقل إلى الإسلام، واطلعوا على محاسنه، فكانت النتيجة أن تهافتوا عليه مقرِّين به دينًا، وبمحمد (ﷺ) نبيًّا ورسولا))(١)، وكان على رأس هؤلاء الذين أسلموا: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة، وغيرهم من قادة قريش وعقلائها، الذين رأوا ترابط المسلمين وتكاتفهم وانضباطهم في صلح الحديبية وعمرة القضاء، فاختمرت في نفوسهم فكرة اعتناق الإسلام، وقدموا على رسول الله (ﷺ) المدينة فأعلنوا إسلامهم، وكان ذلك من بركات صلح الحديبية.

وقد مهد صلح الحديبية لاتصال المسلمين بالبلاد الواقعة إلى الجنوب من مكة، وكانوا قبل ذلك ((بعيدين بُعدًا يكاد يكون تامًّا عن سلطان الدين الجديد، ولكن هذه الهدنة قد جعلت الاتصال مع بلاد العرب الجنوبية أمرًا ميسورًا في ذلك الحين))(٢)، وقد كان لانتشار الإسلام في الجنوب في الفترة التي أعقبت الحديبية ((أهمية خاصة من الناحية العسكرية، فقد جعل قريشًا مطوقة بالمسلمين من الشمال والجنوب، وبذلك تقرر مصير مكة وقريش نهائيًّا))(٣).

كما مهد صلح الحديبية لفتح مكة، وإسلام قريش، وتسارع العرب لاعتناق الإسلام، فقد (بادر خلقٌ منهم إلى الإسلام قبل فتح مكة، فأسلموا بين صلح

(١) كيف كان صلح الحديبية فتحًا مبينا: د. محمد بن إبراهيم أبا الخيل، ص ٩١، ٩٢.

(٢) الدعوة إلى الإسلام: توماس أرنولد، ص ٤٠، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط. الثالثة ١٩٧٠م. ترجمة: حسن إبراهيم حسن، وزميليه.

(٣) الرسول القائد: محمود شيت خطاب، ص ٢١٢.

الحديبية وفتح مكة، وازداد الآخرون ميلاً إلى الإسلام، فلما كان يوم الفتح أسلموا كلهم، لما كان قد تمهَّد لهم من الميل، وكانت العرب من غير قريش في البوادي ينتظرون بإسلامهم إسلام قريش، فلما أسلمت قريش أسلمت العرب في البوادي)(١)، فقد جاءت الوفود تترى خلال هذه الفترة، ودخل الناس في دين الله أفواجا، ((حتى إن الجيش الإسلامي الذي كان قوامه عشرة آلاف مقاتل في فتح مكة، إذا هو يزخر في ثلاثين ألف مقاتل في غزوة تبوك قبل أن يمضي على فتح مكة عام كامل، ثم نرى في حجة الوداع بحرًا من رجال الإسلام – مائة ألف من الناس، أو مائة ألف وأربعة وأربعون ألفًا منهم – يموج حول رسول الله بالتلبية والتكبير والتسبيح والتحميد، تدوي له الآفاق، وترتج له الأرجاء))(٢).

وهكذا ((سمي صلح الحديبية فتحًا مبينًا، ونزلت في تسجيل أحداثه سورة تحمل هذا الاسم (سورة الفتح)، وذلك لعدة أسباب منها: إتاحة الفرصة أمام القبائل لإرسال بعوثها إلى المدينة لزيارة النبي (ﷺ) والاستماع لما يدعو إليه))(٣)، وقد سرد أهل المغازي من هذه الوفود ما يزيد عدده عن سبعين وفدًا، فقد جاءت الوفود بعد صلح الحديبية إلى رسول الله (ﷺ) من كل حدب وصوب في الجزيرة العربية تعلن ولاءها وإسلامها، ((وإن تدبر فقه النبي (ﷺ) وسياسته في التعامل مع تلك الوفود من مختلف القبائل ذوي الطبائع المختلفة والمشارب المتباينة والأحوال المتعددة في السلوك والفهم، ليمدّنا بسيل من النقاط التي يمكن أن يبنى عليها الكثير في نماذج التعايش والتعامل مع الآخر، فقد كان النبي (ﷺ)

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ١٢/١٤٠.

(٢) الرحيق المختوم للمباركفوري، ص ٤٢٥.

(٣) الموسوعة الإسلامية العامة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ص ٨٨١.

يجيب على أسئلة كثيرة حول سلوكيات وتصرفات شائعة بين الوفود في أرضهم وقبائلهم، وكان يعلمهم ويحفظهم آيات من القرآن، وكان يتودد إليهم بالسؤال عن أرضهم وعن شرفائهم، وكان يرسل معهم من يعلمهم دينهم ويشرح لهم حقائق الإسلام؛ لكي تتطهر قلوبهم وتشفى صدورهم من أمراض الجاهلية وأدرانها الخبيثة))(١).

ومما سبق يتبين لكل باحث منصف أو قارئ متأمل أن معدل الانتشار السريع للإسلام بعد توقيع هدنة الحديبية وما تلاه من شعور عام بالأمن والاستقرار، يبين زيف شبهة انتشار الإسلام بحد السيف، ويفضح تهافتها، تلك الخرافة التي يتمسك بها أعداء الإسلام، وهم يعلمون أنها مجافية للحقيقة ويكذبها الواقع التاريخي، فما إن أتيحت الفرصة لغير المسلمين بعد صلح الحديبية أن يختلطوا بالمسلمين ويتعرفوا على الإسلام، دون خوف من سلطان قريش، حتى أقبل الناس يعلنون إسلامهم، وينضمون طواعيةً إلى معسكر المسلمين، ولقد كان مبتغى النبي (ﷺ) من صلح الحديبية أن تتخلص القبائل العربية من وصاية قريش وتسلطها، ثم تختار كل قبيلة بعد ذلك ما تشاء، دون ضغط أو إكراه من أحد، وما تسمية صلح الحديبية بالفتح إلا لأنه هيأ الجو المناسب لنشر الإسلام وعرضه، ((فمن الثابت أن الإسلام كان يصادف النجاح والانتشار في الجو الهادئ، بعد أن تضع الحرب أوزارها، وهذا صلح الحديبية أكبر دليل على انتشار الإسلام عندما توقف القتال، فدخل فيه في سنتين فقط، مثل من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر))(٢).

---

(١) راجع: النماذج الأربعة من هدي النبي (ﷺ) في التعامل مع الآخر: د. علي جمعة، ص ٩٧، ٩٨ باختصار.

(٢) صلح الحديبية "الفتح المبين": د. شوقي أبو خليل، ص ١٠، ١١.

المطلب الخامس
الانطلاق نحو العالمية

لقد عاشت الجزيرة العربية لقرون طويلة في حروب طاحنة ومعارك مستمرة، ومن ثم جاء صلح الحديبية ليحقق السلام، ويبعث على الطمأنينة والأمن والتعايش الإنساني في ربوع الجزيرة العربية، وكان ذلك تمهيدًا لتحقيق فكرة التعايش بين الشعوب والأجناس والأديان، وهي الفكرة التي تتسق وعالمية الإسلام، فقد هيأ صلح الحديبية الأجواء للانتقال بالدعوة من المحلية إلى الإقليمية، ثم الانطلاق بها إلى العالمية، حيث أقدم رسول الله (ﷺ) بعد الصلح على كتابة رسائل إلى ملوك العالم وأمراء العرب، يبسط لهم فيها رداء التعايش، ويدعوهم إلى الإسلام، الأمر الذي يعني ((أن قيام هدنة الحديبية قد مكن النبي (ﷺ) من التفرغ للعمل على إيصال دعوته – وبطريق رسمي – إلى خارج حدود جزيرة العرب، حيث قام في فترة الهدنة بالاتصال بالملوك والأمراء ودعوتهم إلى الدخول في الإسلام، وذلك عن طريق رسائل خاصة بعث بها إليهم في السنة السابعة من الهجرة، حيث بعث إلى كل ملك أو أمير واحدًا من أصحابه برسالة يدعوه فيها وشعبه إلى الدخول في الإسلام، ورغم اختلاف تأثير هذه الرسائل، فقد كان وصولها وانتشار خبرها بين الشعوب لصالح الدعوة الإسلامية دونما شك))[1]، وقد كانت هذه المراسلات هي البذرة الأولى لحوار عالمي فاعل وبنَّاء بين الأمم والحضارات، وقد كان النبي (ﷺ) – من خلال هذا الحوار – يؤسس لتعايش إنساني مع كل شعوب العالم الأخرى داخل الجزيرة العربية وخارجها، ويمكن القول بأن هدنة الحديبية كانت إيذانًا ببدء مرحلة جديدة للدعوة الإسلامية، فبموجب تلك الهدنة ((انفتحت السبل،

(١) صلح الحديبية: محمد أحمد باشميل، ص ٣١٢، ٣١٣ باختصار.

وأصبح الطريق آمنًا أمام الدعاة ليصلوا بدينهم للناس، وتشوق الجميع ليتعلموا هذا الدين الذي أعلنه محمد (ﷺ) وتغلب به على قريش، وانتشر بسببه السلام بين العرب جميعًا، ورأى النبي (ﷺ) أن الجبهة أمام الدعوة قد اتسعت لتشمل الجزيرة كلها، والعالم كله، وهداه الله (ﷻ) لوسيلة تناسب هذا التوسع، هي وسيلة الرسائل يحملها الصحابة، الذين يختارهم لحملها إلى رؤساء القبائل، وشيوخ العشائر، وملوك الدنيا، وفيها يدعونهم ومَن وراءهم إلى الدخول في الإسلام))(١).

روى ابن سعد أن رسول الله (ﷺ) لما رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست، أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتبًا، فخرج ستة نفر منهم في يومٍ واحد، وذلك في المحرم سنة سبع، وهؤلاء الستة هم: عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، ودحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر، وعبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى، وحاطب بن أبي بلتعة اللخمي إلى المقوقس، وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، وسليط بن عمرو العامري إلى هوذة بن علي الحنفي، ثم تابع بعد ذلك حتى وفاته إرسال الرسل من أصحابه إلى زعماء آخرين(٢).

جاء في كتابه إلى هرقل (ملك الروم): **(بسم اللَّه الرَّحْمَن الرَّحِيم، مِن مُحَمَّدٍ عبدِ اللَّهِ ورَسولِهِ إلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلامٌ علَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أمَّا بَعْدُ، فإنِّي أدْعُوكَ بدِعَايَةِ الإسْلامِ، أسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فإنْ تَوَلَّيْتَ**

(١) السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني: د. أحمد أحمد غلوش، ص ٥١٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. الأولى ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

(٢) راجع بتوسع: الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد ٢٥٨/١ وما بعدها.

فإنَّ عَلَيْكَ إثْمَ الأريسيِّين(١) **و ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾** [آل عمران: ٦٤])(٢).

وجاء في كتابه إلى كسرى (ملك فارس): **(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلامٌ على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لينذرَ من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثمَ المجوس عليك)**(٣).

وجاء في كتابه إلى النجاشي (ملك الحبشة): **(بسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هذا كتاب من محمد النبيّ إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة، سلامٌ على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبةً ولا ولدا، وأن محمدًا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الإسلام، فإني أنا رسوله، فأسلم تسلم ﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ**

---

(١) الأريسيون: هم الأكَّارون أي الفلاحون والزراعون، ومعناه: أن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك، ونبه بهؤلاء على جميع الرعايا لأنهم الأغلب، ولأنهم أسرع انقيادًا، فإذا أسلم أسلموا وإذا امتنع امتنعوا. شرح صحيح مسلم للإمام النووي ١٠٩/١٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد والسير – باب دعاء النبي إلى الإسلام والنبوة (ﷺ) وأن لا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله ١٠٧٤/٣ ح رقم ٢٧٨ من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما).

(٣) تاريخ الطبري ١٣٣/٢، وزاد المعاد لابن القيم ٦٨٨/٣.

فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾، فإن أبيتَ فإن عليك إثم النصارى من قومك) [آل عمران: ٦٤])(١).

وجاء في كتابه إلى المقوقس (ملك مصر والإسكندرية): **(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدي، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليتَ فإن عليك إثم القبط ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾** [آل عمران: ٦٤])(٢).

والمتأمل في هذه المراسلات ونحوها يلاحظ الآتي:

١- أنها تصطبغ بالحكمة والموعظة الحسنة واحترام المخاطَب بوصفه بـــ (عظيم) لمكانته بين قومه، وترغيبًا له في الإسلام(٣).

٢- أنها تحمل دعوة سلمية إلى الإسلام، فهي تخلو من أي تلويح بالعنف أو تهديد بالقتال إذا لم يسلم الملك وقومه، بعبارة (أسلم تسلم) أي: من عقاب الله وعذابه(٤).

٣- أنها وُجهت إلى الملوك والأمراء، فهم قادة الناس، ورعيتهم على دينهم، ولذا فقد تضمنت الرسائل ما يفيد مسؤولية الملوك عن رعاياهم، ومن ذلك:

---

(١) رواه البيهقي في "دلائل النبوة" (٣٠٨/٢) عن ابن إسحاق.

(٢) السيرة الحلبية ٢٩٥/٣، ٢٩٦، وزاد المعاد ٦٩١/٣.

(٣) السيرة النبوية الصحيحة: د. أكرم ضياء العمري، ص ٤٦٠.

(٤) سماحة الإسلام في الدعوة والعلاقات الإنسانية: د. عبد العظـــيم المطعنـــي، ص ١١٧، مكتبة وهبة، القاهرة، ط. الأولى ١٤١٤هـــ/١٩٩٣م.

(فإنما عليك إثم المجوس)، (عليك إثم الأريسيين)، (فإنما عليك إثم النصارى)، (فإنما عليك إثم القبط)(١).

وما من شك في أن تلك الرسائل كانت تعبيرًا عمليًّا عن عالمية الرسالة، فقد ((نقلت الإسلام من المحيط المحلي إلى المحيط العالمي، وهزت عروش ملوك، وأدخلت ملوكًا في الإسلام، ووجهت بعض الملوك إلى الحرب، وما كان هذا الأمر ليتم قبل صلح الحديبية، حيث أصبحت الدولة الإسلامية هي الدولة الأقوى في جزيرة العرب بلا منازع، وإنهاء الحرب الطاحنة كان إيذانًا بالتفرغ إلى الدعوة وتبليغها للناس كافة))(٢).

وبعد: فهذه بعض مكاسب الصلح وثمراته، وما كان لهذه المكاسب أن تتحقق لولا أجواء الأمن والأمان والتعايش السلمي التي عمت أرجاء الجزيرة العربية بعد توقيع هدنة الحديبية، تلك الأجواء التي حققت انتشارًا سريعًا للإسلام داخل الجزيرة العربية وخارجها في فترة وجيزة.

(١) السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني: د. أحمد غلوش، ص ٥١٤.

(٢) المنهج الحركي للسيرة النبوية: منير محمد الغضبان ٣/٥٥، مكتبة المنار، الأردن، ط. السادسة ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

الخاتمة

وتشتمل خاتمة الدراسة على ما يلي:

أولاً: أبرز النتائج:

١. يوزن التعايش على (تفاعُل)، فهو عملية تفاعلية بين الأمم والشعوب، ينتج عنها تعاون في الأمور المشتركة والقيم الإنسانية المتفق عليها، دون المساس بخصوصية وثقافة كل أمة، الأمر الذي يجعل التعايش يقوم على الاحترام المتبادل، والإقرار بالاختلاف، وتلك هي الضمانة الأكيدة لاستمرار التعايش وفاعليته.

٢. التعايش حتمية عصرية، فهو السبيل لمواجهة تحدي التعدد الحضاري والتنوع الثقافي، ولا بديل عن التعايش سوى الخراب والدمار الناشئ عن الصراعات والحروب.

٣. تميزت دعوة الإسلام إلى التعايش عن غيرها من الدعوات المعاصرة بالسَّبق، والوضوح، والمصداقية، فقد دعا الإسلام إلى التعايش الحقيقي، وليس التعايش الانتقائي الذي تعلو به أصوات الغرب لتحقيق مصالح معينة، أو الشعارات الجوفاء التي يكذبها الواقع.

٤. التعايش مع غير المسلمين لا يعني التقليد الأعمى لهم، والتشبه بهم، والتنازل عن قيم ومبادئ الإسلام إرضاءً لهم، ونحو ذلك من مظاهر الميوعة والذوبان والتفريط في الهوية الإسلامية، بحجة التعايش وقبول الآخر والتقارب معه، فكل هذا ونحوه من التعايش الممنوع الذي لا يجيزه الإسلام ولا تقره الشريعة الإسلامية، والتعايش الذي دعا إليه الإسلام ورغَّب فيه لا يعني التخلي عن الثوابت، أو التفريط في الحقوق والمبادئ، أو المساومة عليها تحت أي مسمى.

٥. الإسلام هو أحرص الأنظمة العالمية على إقامة سلام حقيقي قائم على الحق والعدل، ودعاة الإسلام هم أحرص الناس على السلام، ذلك أنهم دعاة هداية وليسوا دعاة حرب، والأصل في علاقات المسلمين بغيرهم هو السلم والتعايش لا الحرب والقتال، وعليه فالحرب في الإسلام إنما هي استثناء وضرورة.

٦. لا استمرار لسلام ولا استقرار لتعايش ما لم تكن ثمة قوة تحميه وتحمل الخصوم عليه، وتردع كل من تسول له نفسه أن يخل به أو يقوض الأسس والدعائم التي قام عليها

٧. التعرف على ثقافات الأمم وفهم الشعوب أمر ضروري، بل هو أساس من الأسس التي يقوم عليها التعايش.

٨. التعايش مع غير المسلمين يعد فرصة ذهبية لإبراز محاسن الإسلام والدعوة إليه في أجواءٍ يسودها الهدوء والتقارب، وإطلاع غير المسلمين على عظمة الإسلام وسمو تشريعاته ورقي حضارته.

٩. معدل الانتشار السريع للإسلام بعد توقيع هدنة الحديبية وما تلاه من شعور عام بالأمن والاستقرار، يبين زيف شبهة انتشار الإسلام بحد السيف، ويفضح تهافتها، تلك الخرافة التي يتمسك بها أعداء الإسلام، وهم يعلمون أنها مجافية للحقيقة ويكذبها الواقع التاريخي.

١٠. هيأ صلح الحديبية الأجواء للانتقال بالدعوة من المحلية إلى العالمية، حيث أقدم رسول الله (ﷺ) بعد الصلح على كتابة رسائل إلى ملوك ورؤساء العالم، يبسط لهم فيها رداء التعايش، ويدعوهم إلى الإسلام.

ثانيًا: أهم التوصيات:

ومن خلال هذه النتائج يمكن التوصية بما يلي:

١- التعايش اليوم ضرورة ملحة، يفرضها سباق التسليح النووي وغيره بين الدول الكبرى، ويحدوها الحفاظ على سلامة البشرية، ولذا وجب على عقلاء العالم وحكماء البشرية من المسلمين وغيرهم أن يبحثوا عن وسائل للتقارب والتعايش بين مختلف الطوائف والاتجاهات.

٢- ضرورة تجديد الخطاب الديني بما يحقق تصحيح الصورة الذهنية الخاطئة عن الإسلام وأتباعه، وتطبيق مفاهيم التعايش بين المسلمين وغيرهم بطريقة تواكب العصر، وتحافظ على ثوابت الدين ومبادئه الأصيلة.

٣- إجراء المزيد من الدراسات حول التعايش في السيرة النبوية بشكل أوسع، مع التركيز على الجانب التطبيقي للتعايش في مختلف المجالات الحياتية وفق الضوابط الشرعية.

٤- العمل على استمرار الحوار ومد جسور التواصل مع غير المسلمين شرقًا وغربًا، واختيار العلماء الموثوقين للقيام بهذه المهمة الجليلة، شريطة أن يكون ذلك وفق خطة مدروسة ومحكمة، وذات أهداف واضحة، تخدم الإسلام والمسلمين، وأن يكون ثمة تقويم مستمر لتلك الحوارات.

٥- إبراز النصوص القرآنية ونصوص السنة القولية والعملية التي تبني علاقة إيجابية مع الآخر، تكون مرتكزًا لمجتمع إسلامي منفتح ومتعايش مع الآخر.

٦- ضرورة الاستفادة من تجربة التعايش التي حققها رسول الله (ﷺ) في صلح الحديبية، وفق الأسس والنتائج التي توصلت إليها الدراسة لتكون بمثابة ضوابط حاكمة، يلتزم بها المسلمون في تجارب التعايش اللاحقة في كل العصور والأزمنة.

المصادر والمراجع

أولا: تفسير القرآن الكريم:

١. التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، طبعة ١٩٩٧م.

٢. تفسير ابن كثير، دار طيبة، الرياض، الثانية ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م. تحقيق: سامي بن محمد سلامة.

٣. تفسير السعدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. الأولى ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م. تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق.

٤. تفسير الطبري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. الأولى ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م. تحقيق: أحمد محمد شاكر.

٥. روح المعاني للألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

ثانيا: السنة النبوية وشروحها:

٦. الأدب المفرد: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط. الثالثة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٧. دلائل النبوة للبيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ودار الريان للتراث، القاهرة، ط. الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م. تحقيق: د. عبد المعطى قلعجى.

٨. سنن ابن ماجة: أبو عبد الله محمد القزويني، دار الجيل، بيروت، ط. الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م. تحقيق: بشار عواد معروف.

٩. سنن أبي داود، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

١٠. سنن الترمذي: أبو عيسى الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت. تحقيق: أحمد محمد شاكر، وآخرون.

١١. السنن الصغرى للبيهقي، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، طبعة ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

١٢. شرح صحيح مسلم للإمام النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط. الثانية ١٣٢٩هـ.
١٣. شعب الإيمان: أبو بكر البيهقي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط. الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م. تحقيق: د. عبد العلي عبد الحميد حامد.
١٤. صحيح البخاري: بطبعتيه: دار طوق النجاة، بيروت، الأولى ١٤٢٢هـ. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ودار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط. الثالثة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م. تحقيق: د. مصطفى ديب البغا.
١٥. صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
١٦. فتح الباري لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، طبعة ١٣٧٩هـ.
١٧. المستدرك على الصحيحين: محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى ١٤١١هـ/١٩٩٠م. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.
١٨. المسند: أحمد بن حنبل الشيباني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الثانية ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون.
١٩. مصنف ابن أبي شيبة، المكتب الإسلامي، بيروت، بدون تاريخ. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.
٢٠. معجم ابن الأعرابي، دار ابن الجوزي، السعودية، ط. الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م. تحقيق: عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني.

ثالثا: السيرة النبوية والتاريخ:

٢١. البداية والنهاية لابن كثير ١٦٤/٤، مكتبة المعارف، بيروت، بدون تاريخ.
٢٢. تاريخ الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى ١٤٠٧هـ.
٢٣. دراسات في السيرة: د. عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، ودار النفائس، بيروت، ط. الثالثة عشر ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
٢٤. الرسول القائد: محمود شيت خطاب، دار مكتبة الحياة، ومكتبة النهضة، بغداد، ط. الثانية ١٩٦٠م.
٢٥. الرحيق المختوم: صفي الرحمن المباركفوري، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط. الأولى ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.
٢٦. الروض الأنف لأبي القاسم السهيلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط. الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م. تحقيق: عمر عبد السلام تدمري.
٢٧. زاد المعاد لابن القيم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ومكتبة المنار، الكويت، ط. السابعة والعشرون ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
٢٨. سيرة ابن هشام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط. الثالثة ١٤١٠هـ-١٩٩٠م. تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري.
٢٩. السيرة الحلبية: علي بن برهان الدين الحلبي، دار المعرفة، بيروت، طبعة ١٤٠٠هـ.
٣٠. السيرة النبوية: أبو الحسن الندوي، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م. عناية: عبد الله الأنصاري.
٣١. السيرة النبوية الصحيحة: د. أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط. السادسة ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
٣٢. السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني: د. أحمد أحمد غلوش، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. الأولى ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.
٣٣. صلح الحديبية "الفتح المبين": د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، طبعة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٣٤. صلح الحديبية وأبعاده السياسية المعاصرة: د. عبد الحكيم الفيتوري، دار المدني، السعودية، ط. الثالثة ٢٠٠٥م.
٣٥. صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة: د. محمد فوزي فيض الله، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط. الأولى ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
٣٦. الطبقات الكبرى لابن سعد، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
٣٧. عبقرية محمد (ﷺ): عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، طبعة ١٩٨٠م.
٣٨. فقه الدعوة في صلح الحديبية: د. سليمان بن قاسم بن محمد العيد، بحث (منشور) في المجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، المجلد (١٩)، العدد (٣٧) لسنة ١٤٢٥هـ.
٣٩. فقه السيرة: الشيخ محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط. السادسة ١٩٦٥م. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.
٤٠. كيف كان صلح الحديبية فتحًا مبينا: د. محمد بن إبراهيم أبا الخيل، بدون تاريخ.
٤١. مغازي الواقدي، عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ. تحقيق: مارسدن جونس، والسيرة الحلبية ٢/٧٢١.
٤٢. منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية: سليم عبد الله حجازي، دار المنارة، جدة، ط. الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٤٣. المنهج الحركي للسيرة النبوية: منير محمد الغضبان، مكتبة المنار، الأردن، ط. السادسة ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
٤٤. المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للقسطلاني، المكتبة التوفيقية، القاهرة، بدون تاريخ.
٤٥. موسوعة الغزوات الكبرى "صلح الحديبية": محمد أحمد باشميل، المكتبة السلفية، القاهرة، ط. الثالثة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

رابعا: اللغة والمعاجم:

٤٦. القاموس السياسي: أحمد عطية الله، دار النهضة العربية، القاهرة، ط. الثالثة ١٩٨٦م.

٤٧. لسان العرب لابن منظور، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ. تحقيق: عبد الله علي الكبير، وآخرون.

٤٨. معجم البلدان: ياقوت الحموي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.

٤٩. معجم اللغة العربية المعاصر: د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط. الأولى ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٥٠. معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية: عاتق بن غيث البلادي، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة الكرمة، ط. الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٥١. المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بمصر، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط. الرابعة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٥٢. معجم مقاييس اللغة لابن فارس، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م. تحقيق وضبط: عبد السلام هارون.

٥٣. المنجد في اللغة العربية المعاصرة: أنطوان نعمة، وآخرون، دار المشرق، بيروت، ط. الأولى ٢٠٠٠م.

٥٤. موسوعة السياسة: د. عبد الوهاب الكيالي، وآخرون، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، بدون تاريخ.

خامسا: بقية المراجع:

٥٥. أخلاقنا الاجتماعية: د: مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، بيروت، بدون تاريخ.

٥٦. أدب الدنيا والدين للإمام الماوردي، دار اقرأ، بيروت، ط. الرابعة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م. شرح وتعليق: محمد كريم راجح.

٥٧. الإسلام في حياة المسلم: د. محمد البهي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط. الثانية ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

٥٨. الإسلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن الحادي والعشرين: د. عبد العزيز بن عثمان التويجري، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة "إيسيسكو" ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٥٩. الإسلام والتفاهم بين الشعوب: أ. هاني المبارك، ود. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، طبعة ١٩٩٦م.
٦٠. التحالف السياسي في الإسلام: منير محمد الغضبان، مكتبة المنار، الأردن، ط. الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
٦١. التعايش السلمي في المدينة في ضوء الصحيفة "وثيقة المدينة": د. عبد الله خلف عبد، بحث (منشور) في مجلة العلوم الإسلامية، كلية العلوم الإسلامية، الجامعة العراقية، العدد العاشر ٢٠١٥م.
٦٢. التعايش بين المسلمين وغير المسلمين في أفريقيا من منظور شرعي: د. المرتضى الزين أحمد، بحث (منشور) في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أفريقيا العالمية، السودان، العدد التاسع ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
٦٣. التعايش في القرآن الكريم: د. محاسن عبد الله، بحث مقدم إلى المؤتمر القرآني الدولي، مركز البحوث بجامعة ملايا بماليزيا.
٦٤. التعايش مع غير المسلمين وأثره في الفكر الإسلامي: أحمد عباس، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية أصول الدين بالقاهرة، جامعة الأزهر.
٦٥. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية، دار الفضيلة، الرياض، ط. الأولى ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م تحقيق: علي بن حسن الألمعي، وآخرون.
٦٦. حقوق الآخر في ضوء وثيقة المدينة المنورة: د. خالد عليوي جياد، بحث (منشور)، مجلة رسالة الحقوق، جامعة كربلاء، العدد (٢) ٢٠١٢م.
٦٧. حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة: الشيخ محمد الغزالي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط. الرابعة ٢٠٠٥م.
٦٨. الدعوة إلى الإسلام: توماس أرنولد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط. الثالثة ١٩٧٠م. ترجمة: حسن إبراهيم حسن، وزميليه.

٦٩. رسالة إلى العقل العربي المسلم: د. حسان حتحوت، دار المعارف، القاهرة، ط. الأولى ١٩٩٨م.
٧٠. سماحة الإسلام: د. عمر بن عبد العزيز قريشي، مكتبة الأديب، السعودية، ط. الثالثة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.
٧١. سماحة الإسلام في الدعوة إلى الله والعلاقات الإنسانية: د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط. الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
٧٢. السنة النبوية ودورها في تأسيس وترسيخ ثقافة التعايش في المجتمعات: عبد الخالق مهدي الهاتف، ص ١٥١، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة سنار، السودان، سنة ٢٠١٨م.
٧٣. صيحة تحذير من دعاة التنصير: الشيخ/ محمد الغزالي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط. الثالثة ٢٠٠٥م.
٧٤. العلاقات الدولية في الإسلام: الشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، طبعة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
٧٥. العلاقات الدولية في الإسلام: د. وهبة الزحيلي، دار المكتبي، دمشق، ط. الأولى ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
٧٦. قصة الحضارة: ول ديورانت، دار الجيل، بيروت، طبعة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م. ترجمة: زكي نجيب محمود، ومحمد بدران، وآخرون.
٧٧. مبادئ التعايش السلمي في الإسلام "منهجًا وسيرة": د. عبد العظيم المطعني، دار الفتح للإعلام العربي، القاهرة، طبعة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
٧٨. المجتمع الإسلامي والعلاقات الدولية: د. محمد الصادق عفيفي، مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون تاريخ.
٧٩. المشترك الإنساني "نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب": د. راغب السرجاني، مؤسسة اقرأ، القاهرة، ط. الأولى ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
٨٠. مفهوم التعايش في الإسلام: د. عباس الجراري، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة "إيسيسكو" ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٨١. مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون، دار يعرب، دمشق، ط. الأولى ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م. تحقيق: عبد الله محمد الدرويش.
٨٢. الموسوعة الإسلامية العامة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية التابع لوزارة الأوقاف المصرية، القاهرة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م. إشراف: د. محمود حمدي زقزوق.
٨٣. النماذج الأربعة من هدي النبي (ﷺ) في التعايش مع الآخر: د. علي جمعة، دار الفاروق، الجيزة، مصر، ط. الأولى ٢٠١٣م.
٨٤. الوحدة الإسلامية: الشيخ محمد أبو زهرة، دار الرائد العربي، بيروت، بدون تاريخ.

سادسًا: مقالات ومنشورات على شبكة المعلومات الدولية (الانترنت):

٨٥. أثر الحوار في التعايش مع الآخر: عبد السلام حمود غالب، ص ٢٤ باختصار، بحث (منشور) في شبكة الألوكة، رابط النشر:
٨٦. https://www.alukah.net/culture/٠/٥٦٩٨٧/
٨٧. أنواع التعايش السلمي: مريم الخليلي، مقال (منشور) في موقع "موضوع"، رابط النشر
https://mawdoo٣.com/%D٨%A٣%D٩%٨٦%D٩%٨٨%D٨%A٧%D٨%B٩_%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%AA%D٨%B٩%D٨%A٧%D٩%٨A%D٨%B٤_%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%B٣%D٩%٨٤%D٩%٨٥%D٩%٨A
٨٨. التعايش (أنواعه، نماذج تطبيقية..): د. ناصر بن سعد السيف، بحث (منشور) في شبكة الألوكة الثقافية، رابط النشر:
٨٩. https://www.alukah.net/culture/٠/١٠٦٢٥٥
٩٠. سلسلة تغريدات على تويتر للشيخ علي بن مختار آل علي الرملي.
رابط التغريدات:
https://twitter.com/alqayim/status/١٣١٩٩٤٦٩٤٠٤٤٩٢٥١٣٢٨?lang=ar-x-fm

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الملخص باللغة العربية	١١٤٧
الملخص باللغة الإنجليزية	١١٤٩
المقدمة	١١٥١
المبحث الأول: مدخل إلى التعايش	١١٥٦
• **المطلب الأول:** مفهوم التعايش	١١٥٦
• **المطلب الثاني:** أهمية التعايش وضرورته	١١٦٠
• **المطلب الثالث:** التعايش بين الحقيقة والادعاء	١٦٦
• **المطلب الرابع:** أنواع التعايش ومظاهره	١١٧٠
المبحث الثاني: أسس التعايش في ضوء صلح الحديبية	١١٨٤
• **المطلب الأول:** تغليب السِّلم وحقن الدماء	١١٨٧
• **المطلب الثاني: القوة والحزم**	١١٩٤
• **المطلب الثالث:** المعرفة بالآخَر وفهمه	١٩٩
• **المطلب الرابع:** التمسك بالثوابت والحفاظ على المبادئ	١٢٠٣
• **المطلب الخامس:** عبقرية التخطيط والتفاوض	١٢٠٧
• **المطلب السادس:** الوفاء بالعهود واحترام المواثيق	١٢١٢
المبحث الثالث: النتائج والثمرات	١٢١٧
• **المطلب الأول:** الاعتراف بدولة الإسلام في المدينة	١٢١٩
• **المطلب الثاني:** حماية المستضعفين من المسلمين في مكة	١٢٢٣
• **المطلب الثالث:** نشر الأمن وتحقيق السلم المجتمعي في الجزيرة العربية	١٢٢٦
• **المطلب الرابع:** النهوض الدعوي والانتشار السريع للإسلام	١٢٣٠
• **المطلب** الخامس: الانطلاق نحو العالمية	١٢٣٦
الخاتمة	١٢٤١
المصادر والمراجع	١٢٤٤
فهرس الموضوعات	١٢٥٢